وطن بيع بقارورة نبيذ

صالح عزوز

العنوان	**وطن بيع بقارورة نبيذ**
المؤلف	**صالح عزوز**
حجم الكتاب	**21/14**
عدد الصفحات	**112 صفحة**
سنة النشر	**سبتمبر 2020**
الناشر	**دار أجنحة للنشر والتوزيع**
رقم الإيداع الدولي ISBN	**978-9931-700-56-2**

الآراء والأفكار التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة أجنحة الثقافية

دار أجنحة للطباعة والنشر والتوزيع

www.ajniha.com

ajnihaeditions@gmail.com

00213.790.62.13.79

تصفيف الصفحات: إيمان عبد الحكيم

مراجعة لغوية: أسماء رمرام

المدير العام: أ.نوال جبالي

وكيلنا في الاردن:

الأردن- عمان- شارع الملكة رانيا العبدالله- الجامعة الاردنية- عمارة رقم 233 مقابل كلية الزراعة الطابق الأرضي / تلفاكس: 0096265373035 / ص.ب:184034 عمان: 11118 الأردن.

وكيلنا في مصر:

الغربية - طنطا - محلة مرحوم بجوار السنترال - جمهورية مصر العربية.

ت: 00201113393920- 0020107600708

أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية ، أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ خطيٍّ من الناشر يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية .

وقف إلى النافذة التي تطل على الساحة الكبيرة، يحمل كأس نبيذ، وهو يركز نظراته الثاقبة، على الذبابات، التي مازالت تصل إلى الحصن منذ الصبيحة، ثم نادى الخادم بأعلى صوته: سيفو، سيفو.. تعال، أسرع، أريدك في الحال، ضع ما بيدك وتعال.

هرول الخادم إليه مسرعا، حتى كادت أن تسقط من يده، صينية القهوة، التي كان يحضرها للضيوف.. كان يمسح الكؤوس المخصصة للنبيذ الخالص، الذي أوتي به من محلات راقية، لشركات أجنبية، متخصصة في صناعته، تقدمه هدية إلى معارفها، في مثل هذه المناسبات. وما إن سمع صوت سيده، حتى رمى المنشفة وتحرك سريعا إليه.

– نعم سيدي، أعذرني، كنت أوضب المكان. في خدمتك؟

– هل انتهيت من تحضير الطاولة، في قاعة الضيوف، من أجل العشاء، وقاعة الاجتماعات، الخاصة بحالة الطوارئ.

– نعم، سيدي، كل شيء جاهز.. فقط، رئيس المخابرات اتصل صباحا، وأكد أنه في موعد عمل، ولا يمكنه أن يحضر الاجتماع.

التفت إلى الخادم بحركة سريعة، حتى كادت كأس النبيذ أن تسقط من يده: "كيف؟ ألم يخبرك بالسبب؟ ولمَ يغيب عن هذا الموعد الهام؟"

– لا، يا سيدي، فقط قال لي: "لما أرجع من مهمتي، سوف أقدم التقرير إلى الزعيم".

أعاد نظره عبر النافذة، ثم أشار للخادم بالانصراف، بيده، التي كانت تمسك بالسيجارة، وقد وصل في نفخه إلى وسطها، دون أن يلتفت إلى الخادم..

– انحنى الخادم أمامه، ثم خرج مسرعا، وأغلق الباب خلفه.

رن الهاتف عدة مرات، لكنه لم يكترث له.. بقي ينظر إليه، كأنه يريد أن يتوقف عن الرنين، دون أن يجيب، لكن من كان في الجهة الأخرى من الهاتف، أصر على الطلب مرات ومرات.. وربما كان يعرف أن الزعيم منذ فترة طويلة، أصبح لا يترك مكتبه إلا نادرا.

توقف الهاتف عن الرنين... وضع كأس النبيذ على الطاولة الأقرب منه، وأطفأ السيجارة بطريقة عنيفة، ثم جلس إلى مكتبه الواسع، الذي كان لا يظهر من خلفه من كثرة الأثاث، الذي يحيط به.. فتح كتابا، كان مرميا أمامه، غير أن رنة الهاتف قطعت عليه تصفحه، فأعاد الكتاب إلى مكانه.

وضع يديه على ذقنه، وهو ينظر إلى الهاتف أمامه، ثم رفع السماعة...

– آلو... تقطعت كلماته، بعدما سمع صوت من كان يطلبه، ووقف في وضعية استعداد، مثل جندي يقف أمام قائده..

– آسف سيدي، لم أكن في مكتبي، أرجو المعذرة. نعم، كل شيء جاهز من أجل الاجتماع، وسوف أوافيكم بالتقرير حال الانتهاء منه مباشرة.. ثم وضع السماعة، ورمى جسده الضخم على أريكته، المصنوعة من الجلد الخالص.

طلب الخادم، مرة أخرى، ليجهز له السيارة للخروج، لتفقد حالة الحصن.

بدأ الضيوف يصلون، كل على حدة، بأزياء رسمية، ونظارات شمسية، بالرغم من أن الشمس لا تصل إليهم، إلا في حالات قليلة، فأغلب المهمات التي توكل إليهم، تكون في جنح الظلام، وفي سرية تامة.. اصطفوا في البهو، ينظر كل واحد منهم إلى الآخر، دون أن يكلمه،كأنهم لا يتعارفون فيما بينهم من قبل، أو كأنها المرة الأولى التي يلتقون فيها.. بقوا في قاعة الانتظار جالسين، فلا يمكن أن يدخلوا إلى قاعة الطوارئ قبل أن يحضر الزعيم، الذي خرج في عملية تفقدية منذ ساعتين أو أكثر، يحمل بعضهم صحيفة، ومنهم من يحمل محفظة صغيرة، لكنهم يحملون نفس السلاح، وهو مسدس مثبت على الخصر.. بعد ساعة أو أكثر من الانتظار، دخل عليهم الخادم مهرولا: "أتى الزعيم، أتى الزعيم". فقام الجميع، كل في مكانه، ويداه ملتصقتان إلى جنبه.

دخل عليهم الزعيم، وهو يمسك السيجار في يده، سيجارة لا تكاد تفارق شفتيه، حتى اصفرّ شاربه، من كثرة التدخين.. أمرهم بالاستراحة. أسرع الخادم إلى فتح باب مكتبه. وقبل الدخول، نظر إليهم، وأمرهم بالدخول إلى قاعة الطوارئ.

بعد قرابة نصف ساعة، دخل الزعيم على المدعوين إلى قاعة الطوارئ، ارتجف الجميع فوق كراسيهم، أمرهم بالجلوس ثم أخذ مكانه على رأس الطاولة، نادى الخادم، وطلب منهم إغلاق الباب وعدم الإزعاج، ولا يسمح لأي أحد مهما كان أن يدخل عليهم، إلا للضرورة القصوى.

– "قبل التطرق إلى الموضوع، الذي نحن بصدد مناقشته اليوم، أريد من كل واحد منكم أن يطفئ هاتفه النقال، لعدم الإزعاج"، أمرهم الزعيم.

أخرج كل من في القاعة هاتفه النقال، وأطفأه، وأعاده إلى جيبه، ثم حولوا أنظارهم إلى الزعيم، الذي بقي يراقب كل واحد من الجالسين إلى الطاولة.

–تعرفون أن الأمر خطير جدا، وأنه بسبب تلك الحادثة، أصبحنا نتعرض لضغوط من الكثير من الجهات.. لذا، يجب علينا أن نصل إلى حل هذا اللغز، في أقرب وقت، قبل فوات الأوان. والبداية، تكون بتحريات دقيقة في مكان وقوع الحادثة، ويجب أن نلزم الدقة والحذر.. والشيء المهم، هو عدم السماح للصحافة خاصة بالتطرق إلى الموضوع. لذا، يجب مصادرة كل صحيفة تتعرض للحادثة، بشكل أو بآخر، أو بكثير من التفصيل، أو طرح التساؤلات، التي من شأنها لفت انتباه العامة إلى حيثيات القضية، بالإضافة إلى إبعاد كل الأجهزة الأمنية الأخرى، مهما كان نوعها، وإن تطلب الأمر، إرسال تنبيهات خاصة إلى كل قواد هذه الأجهزة، بعدم التدخل في هذا الشأن، واعتباره سريا جدا، يدخل في إطار الأمن القومي للبلد.

حين أكمل الزعيم حديثه إلى الجالسين إلى الطاولة، طلب من كل من لديه فكرة أو رأي في هذه الحادثة، أن يطرحه من أجل المناقشة. نظر كل الجالسين إلى بعضهم، وظهر عليهم نوع من التردد، لأسباب، ربما تكون متعلقة بجهلهم بحيثيات الحادثة، غير أن أحدهم، وهو الأكبر سنا، طلب الكلمة، من

أجل الحديث.. أشار عليه الزعيم بالتكلم. نهض من كرسيه، وظهرت ملامح وجهه، التي توحي بأنه من الرعيل الأول لهذه المؤسسة.

– الملاحظ، أن الحادثة لم تكن من طرف هاوٍ.. والدليل، عدم ترك أي دليل مادي مكان الحادثة. فقد قام أعضاء المجموعة بالتدقيق في كل جزء كان في مسرح الجريمة، ولم يصلوا إلى أدنى دليل، رغم التجهيزات الحديثة التي نستعملها في مثل هذه القضايا. كما قامت فرقة التحريات الخاصة بنا، بتوسيع رقعة الحادثة، وشملت حتى المباني المجاورة، لكن دون جدوى. وإذا سمح لنا الزعيم، سوف نقوم باستدعاء بعض العمال، الذين كانوا في محيط المكان، ربما نستطيع الوصول إلى شاهد، قد يوصلنا إلى خيط الجريمة.

– رد عليه، الزعيم: لا، لا.. على الأقل في الفترة الحالية، لا نريد أي شيء قد يلفت الانتباه، فقط استجوابات عادية وروتينية، مع الذكاء وربط الحوادث، إن أمكن.

ماعدا مدير التحريات، الذي تحدث في هذه القضية، فالأعضاء العشرة الباقون التزموا الصمت، ولم يتحدثوا. لهذا، أمرهم الزعيم بالتوجه إلى قاعة الضيوف، من أجل الأكل والشرب، وسوف يعقد اجتماعا آخر في نهاية الأسبوع، مع الحرص على أن تكون هناك معطيات جديدة، من أجل التقدم في القضية.

توجه كل الأعضاء إلى القاعة. اختار أغلبهم النبيذ الحر. وجلسوا إلى بعضهم، مثنى مثنى. ظهرت من خلال هذه الجلسة، بعض التحالفات الصغيرة، داخل المجموعة، عكست نوعا من الانشقاق، وعدم الثقة، حتى وإن كان بعضهم يظهر الولاء للآخر.. لكنها مجرد مظاهر سطحية، لا غير.

****

بعد الاجتماع مباشرة، تفرق الأعضاء الأحد عشر، كل مع سائقه، وتوجه الزعيم إلى مكتبه. دخل عليه الخادم، وقد لاحظ أن النبيذ نال منه، فبالكاد يستطيع أن يحمل جسده على ركبتيه.

– هل من طلبات، سيدي، قبل أن أنصرف.

نظر إليه الزعيم مطولا، دون أن يحدثه، كأنه يتذكر أين تصادف معه، ثم أشار إليه بالخروج، وإغلاق كل الأبواب، وإطفاء كل الأضواء.

توجه الخادم إلى غرفته الصغيرة، التي كانت خارج القصر، تمدد على فراشه، بعدما أكمل بعض الفتات من الأكل، الذي أحضره معه من القصر.. غاص في يوميات عائلته، التي لا يراها إلا في نهاية كل شهر، لمدة يومين لا أكثر، وربما لا يمكن رؤيتهم في هذا الشهر، لحالة الطوارئ التي يمر بها الحصن.. فقد كثرت التحركات والاجتماعات، خاصة بعد حادثة التصفية الجسدية لعشرين فردا، من بلدان مختلفة، كانوا مجتمعين في قصر من القصور، أعدموا بطريقة شنيعة، بعدما أخرجت كل الفتيات اللواتي كن برفقتهم، وهن بنات تتراوح أعمارهن ما

بين 18 إلى 22 سنة، بعضهن طالبات بالجامعة، بقين عاريات طول الليل، على مدخل القصر، ولم يسمح لهن بالخروج، وأمرن بالبقاء في المكان حتى تطلع الشمس.. وكن يجهلن أن من كانوا برفقتهم قد أعدموا بطريقة مروعة، وعلق على صدر كل واحد منهم كتابة، بلغة لم يفهمها أحد، كانت أقرب إلى الوشم من الكتابة، غير أن القوات الخاصة أتت بعد العملية بساعة تقريبا، قامت بمسح دقيق للمكان، وحملت كل الفتيات إلى مكان آمن، ولم يظهر عليهن أي أثر بعد ذلك..

بقي مستيقظا، حتى بدأت الشمس تداعب القمم، ينسف سيجارة بعد سيجارة، وهو يراقب النافذة الصغيرة، التي تطل مباشرة على القصر، كأنه يحرسه من خلالها، فهو الخادم في النهار والحارس بالليل. رن المنبه في تمام الساعة السادسة، وهو وقت نهوض الزعيم، فأقفله بحركة آلية، وهو مثبت يده تحت رأسه، ثم نهض، اتجه إلى "المغسل" الصغير الذي كان أمامه، غسل وجه ثم مسحه بقطعة قماش كانت معلقة قرب المرآة، التي عكست عينيه المحمرتين لقلة نومه، وبعض شعيرات بيضاء من الشيب، بدأت تزين نهايات شعره، فقد وصل إلى سن الأربعين، غير أن التجاعيد بدأت تحوم فوق محياه.. لبس لباس العمل ثم توجه إلى القصر. وقبل دخوله، لاحظ حركة غير عادية، في الحصن. صعد إلى البهو، فاصطدم بالزعيم، وهو مثبت يديه إلى خصره، يغدو ويروح، بخطوات

بطيئة، كأنه يعد مربعات الأرضية. ألقى عليه التحية، فلم يرد عليه، وأمره بتحضير القهوة، وإحضارها إلى المكتب سريعا.

****

قبل أن يدخل الخادم على الزعيم، وقد عم صوته المرتفع، وهو يسب ويشتم، وقبل أن يقطع المكالمة، وضع السماعة بعنف حتى سقطت من مكانها، لم يسمع طرق الباب الخفيف، ولم يستطع الخادم أن يدخل دون إذن، وبقي مسمرا عند الباب، حتى تفاجأ بالباب يفتح من طرف الزعيم، نظر إليه نظرة استغراب: ماذا تفعل عند الباب؟؟ تتجسس على كلامي..؟

– لا، لا، سيدي، فقط طرقت الباب ولم تسمعني، ولم أشأ أن أدخل دون إذن..

– ضع الصينية على المكتب، وانصرف، وابق في البهو حتى أطلبك..

– نعم، سدي، عفوا...

أعاد الزعيم غلق الباب بالقوة، وظهر من ملامحه أن أمرا خطيرا قد حدث، فهو متوتر في كل الأيام، لكن توتره اليوم أكثر من سائر الأيام الأخرى، ومن عادته بداية اليوم بكوب من النبيذ الخالص، لكنه اليوم لم يطلب من الخادم نبيذا، بل قهوة على غير العادة.. ويظهر من عدد السجائر الملقاة في كل مكان في مكتبه، أنه تعدى العلبة بنصف آخر.

بعد نصف ساعة، فتح الباب، وطلب من الخادم الدخول.

– سوف نعقد اجتماعا طارئا آخر، في ساعة متأخرة، وربما لا ننتهي مبكرا.. لهذا، سوف أكلفك بأن تكون المسؤول الأول عن الطعام، وأن تقف على كل صغيرة وكبيرة. وقبل هذا، يجب أن تأتيني بكل البطاقات التقنية لكل العمال هنا، لكي ندقق في خدماتهم، وإن لزم الأمر يجب أن نقوم بتحريات دقيقة على كل أقربائهم، أصلهم، نوع عملهم، اتجاههم السياسي، آرائهم، ميولهم.. كل شيء.

– بالطبع، سدي، أنا في الخدمة، لكن التحريات، أرى أن يقوم بها مجموعة مختصة في هذه الشؤون.

– نعم، أعرف، فقط، أنت قم بمهمتك الموكلة إليك، وهي مراقبة كل حركة صغيرة وكبيرة هنا في القصر.

وقبل أن يخرج الخادم، طلب منه الزعيم معرفة عدد سنوات خدمتهم له، فأجابه الخادم بأنها تصل إلى 15 سنة إلى حد الساعة، فقد تحول معه عبر الكثير من النقاط التي كان يشغلها، بدءا من قائد في مدرسة عسكرية، إلى منصب زعيم. بقي الخادم أمام الباب، وهو يحمل صينية القهوة، التي أعادها كما وضعها صباحا.. فالظاهر، أن الهاتف وكثرة المكالمات التي تصل إليه لم تسمح له بشرب قهوته باسترخاء تام، كعادته، رفقة سيجارته الكوبية من النوع الرفيع.. يفكر في هذا السؤال، ما فحواه؟ وهل أصبح محل شك عند الزعيم، أم ربما يريد أن

يتخلص منه، في ظل الظروف الحالية، التي تتطلب الحيطة والحذر؟ فقد أصبح كل فرد في الحصن محل شبهة مع تطور الأحداث.

بعد الحادثة الأولى، وقع حادث آخر، غير أن الأمر هذه المرة تطور، لأن القضية تناولتها الصحافة بنوع من التدقيق، وربط الأحداث، ففي يومين وقع حادثان منفصلان، لكنهما يحملان نفس التعبير والرسالة، التي لا زالت إلى حد الساعة تحت مجهر التشفير، فلم يصلوا إلى ربط الأحرف ببعضها، فهي عبارة عن أحرف مرتبطة عشوائيا، وليس نظاميا، تتطلب بعض الجهد من المختصين لفك طلاسمها.

****

حل الظلام، وبدأت السيارات السوداء تصل إلى ساحة الحصن، يركنها ساقتها بطريقة سريعة ومنظمة، كأنها لعبة بين أيديهم، واصطفت السيارات جنبا إلى جنب، ونزل منها أصحاب الزي الأسود، دون ربطة عنق، ظهرت هذه المرة أعينهم، فلا حاجة لهم بالنظارات في هذا الوقت، حتى وإن كانت النظارات التي يستعملونها، ليست بغرض التخفي من الشمس، لكن للتخفي من الأعين التي تراقبهم حين ينزلون بهذا النظام والترتيب، والأزياء السوداء، التي خيطت على مقاس كل واحد منهم. زاد عددهم هذه المرة، ففي الاجتماع السابق، كان عددهم أحد عشر فقط، أما في هذه المرة، فقد وصل العدد إلى حد الساعة إلى عشرين.. أضيفت بعض الكراسي إلى طاولة

الاجتماعات الطارئة، وعلى غير العادة فقد سبقهم الزعيم إلى مكانه.. وحين دخلوا وجدوه ينتظرهم، أراد بعضهم تقديم التحية، لكنه أمره بالاستراحة وأخذ مكانه، عم السكون داخل القاعة، فالزعيم صامت، ولا أحد يمكن أن يتحدث قبله، وفي بعض الأحيان، يترك الجميع جالسين ويخرج من القاعة، ويعود، ولا يستطيع أحدهم مغادرة المكان دون إذنه، غير أنه في هذه المرة، يبدو أن الأمر أعظم، إلى درجة عدم القدرة على فتح الحديث قبل اختيار الكلمات، ثم نهض ووضع يديه على حافة الطاولة:

كما تعرفون، كنا اتفقنا على اجتماع في نهاية الأسبوع، لكن ما حدث ليلية أمس، دفعنا إلى طلبكم استعجاليا، ومنكم من ترك مهامه الموكلة إليه، لكن ليس هناك مهمة أكبر، يجب الحرص أكثر على إنهائها من الملف الذي بين أيدينا اليوم، لأن الضغوط تزيد كل يوم، ويجب أن نقدم تقريرا مفصلا عن الحادثين، حادثة الأجانب، وحادثة الأمس، التي مست بعض كبار المسؤولين عندنا.. وكما تلاحظون، ليس هناك نقطة تلاق بين الأشخاص محل الدراسة أو التحري.. غير أن الأكيد، أن من قام بالعملية الأولى هو نفسه من قام بالثانية، والدليل، ترك نفس الرسالة على صدر كل فرد أعدمه، أو قتله.. سموها كما تريدون، المهم، هي قضية اغتيال منظم، من طرف أشخاص أو مجموعات.

– قاطعه "القناص"، نسبة إلى خبرته في تتبع كل أثر للجريمة المنظمة ضد الأشخاص والجماعات، فقد إحدى عينيه في اشتباك طويل مع أحد رجال

المافيا، يقال إنه حين تمكن منه قطعه إربا إربا ورماه إلى كلبه.. وهو يحضر الاجتماع للمرة الأولى:

سيدي الزعيم، أرى أن الأمر لا يتعلق بجريمة انتقام أو سرقة، فقد أكد لي قائد التحريات أنه بعد كلا العمليتين، بقي كل شيء في مكانه، وحقيقة السطو التي تحدث عنها البعض، لم تكن من طرف من قاموا بالجريمة، بل من طرف شبان اغتنموا الفرصة، واستولوا على كل ما كان في بيت رجل الأعمال، الذي استضاف بقية أصدقائه، من مسؤولين ورجال أعمال، بعد تحصله على صفقة بناء مشروع بالشراكة مع دول أجنبية، وبعد استنطاق الشبان الذين وجدت عندهم كمية كبيرة من العملات الصعبة، ظهر في الأخير، أنهم لا علاقة لهم برجال الأعمال، ووجودهم في المكان مجرد فضول لا غير.

– همّ بمقاطعته سليم، شاب في الأربعينيات، تلقى التدريب العسكري خارج الوطن، يحمل دائما قارورة "فودكا" في جيبه.. وقبل أن يتحدث، بادره القناص: لم أكمل الحديث بعد، دعني أكمل ما أريد قوله، وتفضل بالحديث كما تشاء.

ابتسم سليم، ورد عليه: ماذا تكمل؟ ترى بأن وجود الشبان في نفس المكان والوقت، هو مجرد صدفة أو فضول، وبعض الصحف تحدثت اليوم، بأن أحد الشبان كان في خدمة رجل الأعمال لمدة طويلة، وربما هو من مقربيه.. يبدو أنك هرمت، أنصحك بالاستراحة، خير لك، واترك الشبان يقومون بعملهم.

انتفض القناص ملوحا بأصبعه إلى سليم بأن معه حسابا...

غير أن الزعيم قاطعهما بضرب الطاولة بقوة:

نحن هنا من أجل قضية معينة، وليس لحسابات قديمة بينكما، أو بين غيركما.. أؤكد للمرة الأخيرة، الوصول إلى حل هذه القضية، يتطلب تعاون كل الأطراف، وترك النزاعات جانبا، ومن أراد أن ينتقم أو يصفي حسابه مع صديقة، فالأيام لا تزال طويلة.

عم الصمت في القاعة مرة أخرى، وطفت على السطح التوترات القديمة.. فالجروح بين الأشخاص لا يمكن أن تنسى، فمجرد الجلوس إلى طاولة واحدة، يفتح الملفات الماضية، وهذا ما ظهر جليا بين القناص وسليم.. غير أن واحدا من أصحاب الأزياء السوداء أسر إلى آخر بعد جلسة نبيذ، في نهاية الاجتماع، وهي عادة، بأن القناص لديه بنت مقيمة في الخارج، كان سليم يواعدها دون علمه، وحينما اكتشف الأمر، اعتبرها خيانة وطعنة في الظهر، خاصة أن سليم أفقدها عذريتها، انتقاما من القناص، الذي يروى عنه أنه حبس والد سليم شهرين في زنزانة، بتهمة التآمر على أمن الدولة، والتعرض إلى الكثير من القواد المعروفين، بحكم أنه من قدامى الحرب.. لهذا، تطفو إلى السطح هذه المشاكل القديمة كلما التقيا، وليست المرة الأولى التي يحدث فيها بينهما تصادم مثل هذا.

لم يتحدث إلى الزعيم إلا القناص، وتعليق سليم على كلامه، أما البقية فبقوا متفرجين، ولم يدل أي أحد منهم برأيه في القضية، ما عدا الوعد بالعمل

بجدية، والتعاون مع كل الأطراف، من أجل الوصول إلى حل لغز الجرائم، التي حدثت منذ يومين.. فقط، استمتعوا بالسهرة، والنبيذ الذي وضع على الطاولة، من كل الأنواع، وكذا السجائر.. وحين مد الفجر خيوطه الأولى للبزوغ، تفرق الجمع، وما إن رحلت السيارة الأخيرة من ساحة الحصن، حتى طلعت الشمس. تعب الخادم من التجوال بين هذه الشخصيات، حاملا صينية من النبيذ، يخدم كل من يطلبها.. كان يقف في كل زاوية، ينتظر من يطلبها، نبيذ من النوع الرفيع، غير أنه ليس من هواتها، فقد امتنع عنها منذ مدة طويلة، يعرفها بكل أشكالها وأنواعها ورائحتها، فقد خدمها أكثر من خمس سنوات، ولو سقاها الأرض لفجرت ينابيع من كثرة ما قدمها إلى الأشخاص، في الحفلات والمناسبات، وكذا الاجتماعات الطارئة، على غرار هذا.. وحين حرج آخر واحد منهم، وهو يجرّ رجليه إلى سيارته، حتى حمل على الأكتاف، قام بجمع الكؤوس التي بقيت مرمية في كل مكان، أغلبها بقيت منتصفة.. نادى بعض الخدم، لكي يحملوا ما تبقى منها إلى مكان التبريد، أما هو، فقد حمل جسده المرهق، ورجع إلى غرفته.

****

اختار الزعيم، هذه الليلة، الركون إلى فتاتين، جلست إحداهما إلى جنبه، والأخرى تداعب شاربه، أما هو، فيحمل كأسا من نبيذ، يمرره من حين إلى آخر على صدر أقرب فتاة منه، أو على مؤخرتها، يغوص في حضنها ثم يهيم

في الضحك والقهقهة.. كان نصف عارٍ، يتوسط سريرا في غرفة محاذية لمكتبه مباشرة، يفتح أحد أبوابها على حمام، والآخر على المكتب مباشرة. الجلوس إلى الحسناوات عنده، ليس من أجل المتعة الكلية، لكنه يفضل المداعبة لا أكثر، يفضل اللمس والشم والالتصاق، ولا تنتهي سهراته، التي يقضيها مع فتيات مختلفات إلى علاقة كلية.. يقال إنه مع مرور الوقت، فقد الرغبة الجنسية، لكثرة التجوال بينهن، وهو عاري الجسد، وهن نصف عاريات، في الملابس الداخلية فقط، فلا يحتاج إلى العري الكلي، فقط يختار تمرير الأنامل على حدود أجسادهن فحسب، والتمتع بتجاوب مع ارتفاع شعر الجسد، مع هذه اللمسات.. وبعضهم الآخر يقول إنه افتقد ذكورته عنوة لأسباب لا يعرفها إلا هو. تتفرق في بعض الأحيان الفتاتان من حوله، حين يمر بأزمة سعال حادة، لكثرة التدخين والنبيذ، وسرعان ما يأمرها بالرجوع إلى حضنه، الذي ارتمى بين شعريات مسها الشيب كلها، حتى أصبح صدره لا يكاد يرى من كثرتها، لا ينتبه حتى يجد نفسه قد نام بينهما إلى الصباح، وحين يقوم من سريره، يضربهما ضربا خفيفا على مؤخرتيهما، إعلانا عن وجوب ترك المكان، والدخول إلى الحمام من أجل ساعة أخرى من الهمس واللمس، تحت مياه ساخنة، وحين ينتهي من هذا كله، يدعوهما إلى مكتبه من أجل فطور الصباح، الذي يجهز باكرا، يجلس إلى الطاولة، ويشغل التلفاز، من أجل معرفة أخبار الأمس والصبيحة، وهو في لباس الحمام، يظهر أغلب جسده، يحبذ الجلوس إلى نفسه

في هذه الساعة، لذا، يأمر الفتاتين بالانصراف، بعد أن يمضي لإحداهما صكا على خصرها، والأخرى صكا على صدرها.

هكذا هم الزعماء، يعرفون قدر المداعبة، والإشباع الجنسي عندهم فن أكثر من أي شيء آخر، ينفقون أموالا كثيرة من أجل النظر فحسب، ويستطيع الواحد منهم أن يشتري لباسا داخليا، لفتاة مشهورة أو معروفة، وزنه ذهب، أو يضع يده على خصر فنانة أو مغنية، مقابل مئات الأوراق النقدية.

****

وما كاد يكمل فنجان القهوة والسيجارة، حتى رن الهاتف الخاص، وهو هاتف مخصص لحالة الطوارئ. لذا، فمجرد سماعه، انتفض من فوق كرسيه، واتجه مباشرة إلى السماعة.. رفع السماعة بيد، واليد الأخرى تمسك بلباس الحمام، الذي لا يزال على كتفيه..

– ألو.. نعم، سيدي، لا لم أشغل التلفاز بعد.. وبقي ممسكا بالسماعة، لا يتكلم، وكان من يكلمه في الجهة الأخرى من الهاتف يعاتبه أو يشتمه، لذا بقي مسمرا دون حركة، حتى سقط لباس الحمام من فوق ظهره وبقي عاريا كليا.

ما إن أقفل الهاتف، اتجه مباشرة إلى التلفاز، وحوّله على القناة الخاصة، التي وضعت في أسفل الشاشة خبرا عاجلا بالخط الأحمر، مكتوب فيه: "للمرة الثانية بعد يومين، رجال أعمال يقتلون في أحد القصور، والحديث عن الجريمة المنظمة يعود إلى التداول بين الناس"، غير أن ما زاد من نرفزة الزعيم، أن القناة وضعت

بعض الصور الخاصة بالمجزرة، بعدما غطت ملامح المعدومين، والدم الذي انتشر في كل مكان، حتى تغير لون المسبح إلى لون أحمر. ضرب الروموند على الحائط ثم نادى بصوت مرتفع خادمه، الذي تأخر قليلا في الاستجابة ثم أتى مهرولا إلى الزعيم.

لم ينتبه إليه، ثم تحول مباشرة إلى الهاتف الخاص، وشكل رقما قصيرا، وقبل أن يتكلم، لمح الخادم ينظر إليه، فأمره بالخروج والبقاء عند الباب.

– اطلب لي مدير الاستعلامات فورا، يأتي إلى المكتب، أريده في الحال دون تأخير.. ثم وضع السماعة حتى كادت أن تطير من فوق المكتب. تحرك بعدها إلى الغرفة مباشرة، خرج بعد دقائق، وقد ارتدى اللباس الرسمي.

بعد نصف ساعة، طرق الباب، ودخل الخادم يحمل صينية قهوة.

– سيدي، مدير الاستعلامات عند الباب، يطلب إذن الدخول.

– نعم، دعه يدخل، ولا أريد أن يدخل علي أحد قبل أن أطلبك.

– حاضر، سيدي، وخرج الخادم وعيناه معلقتان بالتلفاز، وكان واضحا ما هو مكتوب على الشاشة بالبنط العريض.

****

كان ينام في شقة استأجرها رفقة صديق، لا يأتي إليها إلا نادرا، يبيت الليل يقلب صفحات الجرائد على الإنترنت، يدخن السيجارة تلو الأخرى دون انقطاع، يضع نظارة بعدما قل بصره من كثرة البحث والقراءة المستمرة، اختار

العمل في المجال السياسي والأمني، منذ أن كان صحفيا متربصا، رغم أن هذا المجال صعب العمل فيه، لكثرة العراقيل وصعوبة جلب المادة إلى رئيس تحريره، الذي كان يوبخه في أغلب الفترات، ويعتبر كل ما يقدمه من مادة في السياسي أو الأمني مستهلكا.. بل، وفي بعض الأحيان، يقلل من قيمته كصحفي في القسم السياسي والأمني، وعرض عليه العمل في القسم الفني، لكنه اعترض بشدة، حتى جاء اليوم الذي ذاع فيه صيته، بعدما قام بحوار حصري، رفقة شخصية معروفة، أقر له بالكثير من قضايا الفساد التي تحاك في السراديب المظلمة، اعتبرها بعض المحللين انتقاما وتصفية حساب، واعتبرها آخرون شجاعة من شخصية تريد الصلاح للوطن.. واعتبر رئيس التحرير أنه صحفي حاذق جدا ومجتهد، وأقر له بتهميشه، لذا أصبح فيما بعد من المقربين إليه. لهذا، نال بعدها الكثير من الامتيازات، على غرار السفر رفقة الشخصيات الرسمية، والعمل دون قيد، والحرية في طرح المواضيع، خاصة الجدلية منها.. تعرضت بعدها القناة لنوع من التضييق، واعتبرت أنها تتجاوز الحدود في الكثير من المواضيع التي تطرحها مع ضيوفها.

كعادته، يستيقظ ويبقى ممددا في فراشه، يداعب هاتفه النقال، وهو يمص سيجارته الصباحية، التي يأخذها قبل أي شيء آخر.. وبينما هو كذلك، حتى رن الهاتف، وظهر أمامه رقم "آمال"، الصحفية في جريدة مجهرية، تصارع من أجل البقاء، في ظل تدحرج مقروئية الصحافة الورقية، وشح الإشهار.

– ماذا تريد مني في هذا الوقت؟ فكر قليلا ثم ضغط زر القبول.

– آلو، كيف حالك؟ الحمد لله، وأنت؟ لا، لا، لا أزال في فراشي.

– هههههه، وماذا أفعل؟

اعتدل في جلسته، كأنها حدثته عن أمر هام، أو خبر عاجل، وتغيرت ملامح وجهه، ورمى ما تبقى من سيجارته على الأرض

– لا، لا، بعد نصف ساعة أكون هناك، شكرا على المعلومة.. بيزو

نهض يهرول، يحمل السروال بيد والقميص باليد الأخرى، وهو يدفع بعض الأوراق التي كان يطالعها في محفظته الصغيرة، ذهب مباشرة إلى الحمام، غسل وجهه سريعا ثم مرر المشط على شعره الأشعث، رمى رجليه في أول حذاء وجده أمامه، ثم خرج مسرعا، وترك غرفته تسبح في الفوضى، ورائحة الدخان تزكم الأنف، وأكمل غلق أقفال قميصه في الدرج.

****

دعه يدخل أمر الزعيم الخادم..

دخل مدير الاستعلامات، وكانت واضحة على محياه، الدهشة والغرابة، وربما الخوف، خاصة وقد وجد الزعيم يداعب سيجارته، وهو يقف عند النافذة، لم يلتفت إليه، غير أنه وجه إليه الكلام دون أن يأمره بالجلوس.

– تعرف أين تكمن مشكلتا؟ أننا نوكل بعض الأمور الحساسة المتعلقة بالأمن إلى أغبياء، ومن الغباء نجني دائما الفشل لا محالة، هل توافقني الرأي، ثم التفت إلى مدير الاستعلامات...

– لم أفهم، سيدي، ما تلمح إليه..

– كان من واجبكم مراقبة كل صغيرة وكبيرة.. أليس كذلك؟ كل ما يكتب وما يبث وما يقال، وحتى ما لا يقال، أليس هذا ما تقومون به..؟

– نعم، هو كذلك، سيدي.

– أوكي، أنتم مشكورون على هذه الخدمة– بنوع من الاستهزاء–، لكن، بودي معرفة كيف وصلت الصور والمعلومات عما حدث بالأمس إلى يد الصحافة؟ هل هو تقصير أم لكونكم هرمتم، وأصبح من الواجب علينا استخلافكم بمن هم أقدر منكم؟

– الأمر ليس تقصيرا أبدا، وكنا نحن الأوائل ممن وصل إلى مكان الجريمة، غير أنني أنظر إلى القضية من زاوية مختلفة..

التفت إليه الزعيم، هذه المرة، وأمره بالجلوس...

– تفضل، أنا أسمع ما تود طرحه من أجل الدفاع عن تقصيرك...

– بالنظر إلى حيثيات القصية، ولكوننا كنا أول من وصل إلى المكان، أرى أن من قام بالجريمة هو من أرسل الصور إلى الإعلام...

– قراءة سليمة، لكنني لا أتحدث عمن أرسلها، أتحدث عن شيء آخر، كان من واجبكم النظر في كل ما ينزل في الجرائد، وتفصيلها على مقاس ما يخدمنا، فهمت أم لا؟ ومن الآن فصاعدا، قبل أن ترسل المادة للطبع، يجب أن تكون هناك قبلها، ولا أريد أعذارا أخرى...

– كما تعرف، سيدي، المادة التي أرسلت لم تكن موضوعا، بل كانت خبرا عاجلا، ربما مباشرة بعد وصولها، عرضت على الشاشة.

_ كيف هذا؟ الحادثة كانت بالأمس، والصحافة عالجتها اليوم صباحا.. عن أي عاجل تتحدث أنت؟...

اشتد غيظ الزعيم، وزادت نرفزته، أشعل سيجارة أخرى، ثم أمر مدير المعلومات بالانصراف، وقبل أن يخرج أمره، بالذهاب إلى مقر القناة التي عرضت الخبر والصور، وبألا يرجع إليه قبل أن يقدم له شيئا ماديا من هناك..

خرج مدير الاستعلامات مهرولا، فتح الباب، فوجد الخادم عند الباب ينتظر، نظر إليه نظرة ثاقبة ثم تدحرج في الأدراج، يلملم ما تبقى من شخصيته، بعد كل تلك الإهانة، التي شربها صبيحة هذا اليوم من طرف الزعيم.

****

وصل إلى مقر القناة، وجد جموع الصحفيين والتقنين خارج المبنى، نظر إليه الجميع باستغراب، سأل الأقرب إليه: ماذا يحدث؟

– لا ندري، اليوم صباحا، وصلنا إلى المقر، فوجدناه مغلقا، ومالك القناة ومدير التحرير في الداخل..

سمع صوتا يقترب إليه، وهو ينادي باسمه، التفت، فوجد سكرتيرة المدير، تطلب منه التقدم نحوها بين جموع العمال، اقترب منها، فأعطته ورقة، فتحها بسرعة، تمعن فيها، ثم رفع رأسه إلى السكرتيرة التي تعلو على وجهها سحابة حزن، دس قطعة الورق في جيبه ثم دفع كل ما كان قبالته، وخرج مسرعا إلى الشارع، رفع يده إلى التاكسي الأول فصعد فيه.

سار به التاكسي قرابة 20 دقيقة، ثم طلب منه أن يتوقف، دفع إليه الثمن، ثم هبط مسرعا.. صعد السلالم بخطوات عملاقة، حتى وصل إلى الطابق الأخير، "الطابق الرابع"، طرق الباب طرقا خفيفا، ثم اتكأ على الحائط، ورفع رأسه إلى السقف، انتظر، لكن لم يجبه أحد من الداخل، أعاد الطرق، لكن بنوع من القوة، هذه المرة، لكن دون جدوى، فأكد أنه ليس هناك أي أحد بالداخل، نظر إلى من حوله، لا يدري ماذا يفعل، أراد أن يهبط مرة أخرى، بعد تردد، لكنه، قرر أن ينزل مسرعا، كما صعد.. غير أن من كان يبحث عنه، ناداه من أمام البيت، وطلب منه الرجوع.

رجع مسرعا، ودخل إلى البيت، وألقى نفسه على أول أريكة كانت أمامه، تنفس بعمق.

– ما بك؟ قلت لك لا تأتني في النهار.

– آسف، لكن الأمر مستعجل، ولا يمكن الانتظار إلى المساء.

– القناة أغلقوها... ما كاد أن يكمل الحديث حتى قاطعه.. نعم، أعرف، فقد ارتاح..

نظر إليه الصحفي باستغراب، كيف وصلت إليه هذه المعلومة، وهو لا يكاد يخرج من بيته إلا في العطل، ولم تبث هذه الحادثة في قناة أخرى، ماعدا بعض الاستفهامات عما يحدث.

– تريد قهوة أم شايا؟ دعك من التفكير في الأمر، كل شي له حل.

– لا أريد أي شيء، فقط كوب ماء لو سمحت.

جلسا متقابلين، ينظر كلاها إلى الآخر دون حديث.. كان الصحفي ينتظر منه تفسيرا عما يحدث، لهذا كان يحس بالفضول يقطعه، لكن الأصلع، لم يعره أي اهتمام، فقد كان يركز عينيه الصغيرتين في كوب القهوة، الذي يحمله باليد اليمنى. دام الصمت قرابة نصف ساعة، ولم يتحدث أي واحد إلى الآخر، حاول الصحفي تشغيل التلفاز، لكن الأصلع طلب منه عدم فعل ذلك، فليس هناك شيء مهم على حد قوله. ولما هم الصحفي بالخروج، طلب منه الأصلع البقاء بعض الوقت، فهو يحتاجه في مهمة، ثم تركه وذهب إلى الغرفة المجاورة. عاد بعد ربع ساعة، وهو يحمل بيده "فلاش ديسك"، أعطاه إياه، نظر إليه الصحفي بتمعن كبير، ثم مد يده وأمسكه.

– ما هذا؟ يمكن أن أعرف المحتوى دون أن أطلع عليه؟

– لا، من الأحسن أن تطلع عليه بنفسك، أرجو ألا تنزعج من المحتوى، وأنتظرك يوم الجمعة بعد الساعة العاشرة، يمكنك أن تنصرف الآن.

دس الفلاش في جيبه ثم انصرف، وهو ينظر إلى الأصلع، الذي أخذ نفس المكان مقابل النافذة.

يوم ليس كغيره، عاشه الصحفي، دخل إلى الشقة، التي تركها تتنفس في الفوضى العارمة، أحس بنوع من التغير في الغرفة، لكن الفوضى بقيت نفسها.. ارتمى على فراشه، دون أن ينزع الحذاء، الذي زادت رائحته بعد يوم من الجري، تذكر الفلاش في جيبه، أدخل يده، ورفعه أمام عينيه يراقبه، ثم تناول الكمبيوتر، أدخل الفلاش، ونزع قميصه وسرواله ثم تقدم إلى الطاولة، وبدأ الفيديو يشتغل.

****

أريد معرفة كيف وصلت إليكم الصور والمعلومات الخاصة بالجريمة التي وقعت الأمس، دون تماطل، أو لف ودوران.. سأل مدير الاستعلامات مدير القناة ورئيس التحرير.

– مهما يكن، لا يمكن أن نكشف عن مصدرنا، والخبر متعلق بجريمة قتل، لا أرى أي مانع في عرضها، مادامت لا تمس بالأمن وسيادة الدولة– رد المدير.

– نحن من نقرر، لست أنت، سيدي المدير.

– فقط، أريد أن أعرف هل نحن محتجزون أم شيء من هذا القبيل؟..

– لا، لا، فقط مجرد تحريات روتينية نقوم بها، مع مختلف القنوات والجرائد.

– إذا كان بإمكانكم إرسال دعوة إلينا للحضور إلى مكتبكم والحديث في الموضوع، فالأمر لا يتطلب غلق القناة وإيقاف البث، ورمي العمال خارج المقر.

لم يتطور الحديث بين الطرفين، وظهرت هناك مقاومة من طرف مدير القناة، أما رئيس التحرير، فبقي ينظر دون تعليق، ولم توجه إليه الأسئلة مباشرة من طرف مدير الاستعلامات.

–كان باستطاعتي الذهاب مباشرة إلى مصدر الخبر والصور، وهو الصحفي، الذي قام بالعمل، وأنا أعرف كيف تسير الأمور في مثل هذه المؤسسات الإعلامية، ففي الوقت الذي يذهب الصحفي العادي للبحث عن المعلومة التي قد تودي بحياته، يبقى الزعماء مثلكم وراء مكاتبهم، ينتظرون السبق الصحفي من أجل الشهرة على حساب غيرهم، أردت الحديث إليكما قبل الخوض في أمور أخرى، لكنكم لا تريدون مساعدتي... كان بالإمكان الوصول إلى أرضية اتفاق، وأنتما تعرفان هذا، لكن هذا خياركم.

لم يحركا ساكنا، سواء المدير أم رئيس تحرير القناة، وبقيا ينظران إلى بعضهما، كأنهما أحسا بتهديد صريح من طرف مدير الاستعلامات، لكنهما بقيا على كلمة واحدة، وهي أن الموضوع لا يحتاج إلى هذه الضجة، ولا يمكن أن يقدم الصحفي قربانا إلى هيئات تضع نفسها الآمر الناهي في تسيير شؤون الإعلام، وإلا تحول هذا الإعلام إلى مجرد آلة في أيدي أناس مجهولين، يحركونها أينما شاؤوا

وضد من أرادوا، وهذا يتعارض مع المهمة النبيلة، التي يقوم بها الإعلام في المجتمع.

بعد ساعتين من هذا التحقيق، الذي اعتبره مدير القناة احتجازا له ولرئيس تحرير القناة على حد تعبيره، في المقابل، اعتبره مدير الاستعلامات مجرد تحريات روتينية.. افترق الطرفان، دون الوصول إلى نتيجة، وهذا ما ظهر في سلوك مدير الاستعلامات، الذي ذهب مباشرة إلى مكتب الأرشيف وأخذ بعضها، وظهر في الأخير أنها بعض التسجيلات الأخيرة التي تحضرها القناة، اعتبرها مدير القناة انتقاما منه على عدم تعاونه معه، غير أن مدير الاستعلامات طمأنه بأنه سوف يعيدها إلى القناة بعد أن يقوم بالتدقيق في محتواها، لكي لا تقع القناة في تهور آخر، قد يوصلها إلى نقاط مجهولة، كغلقها أو شيء من هذا القبيل، ففي المرة القادمة، سوف يتطور الحديث إلى أمور أخرى. كلام، أكمل به مدير الاستعلامات حديثه إلى مدير القناة ثم انصرف مسرعا، ومساعداه يتبعانهّ.

****

زاد الضغط على الزعيم، ولم يصل إلى حل لغز القتل الذي يطال الأجانب وبعض رجال الأعمال والسياسيين، ونتيجة لهذا، سارع إلى عقد اجتماع آخر، لعله يصل إلى رأي سديد، يمكن أن يخفف عنه ما يعيشه في الفترة الأخيرة، خاصة بعدما تحولت هذه الأحداث إلى الشغل الشاغل، ليس

للصحافة فحسب، بل حتى لعامة الناس، ولم تصل المجموعة الخاصة بفك الشيفرات إلى تحديد وشرح الكلمات التي يتركها الجلادون على صدور كل من قتلوه، اجتماع وصل إلى نتيجة الصفر.. لهذا، ثارت ثائرة الزعيم، وطلب منهم الخروج، بعدما قذف الهاتف وكومة الأوراق التي كانت أمامه، فتسارعوا إلى باب الخروج، يتدافعون كالبهائم. وهي المرة الأولى، التي ينتهي فيها الاجتماع دون المرور إلى سهرة نبيذ، تشفي غليل المجهول الذي يقعون فيه، وهي الطريقة الوحيدة التي يختارها الزعيم، لكي يتجاوز أو ينسى الضغط الممارس عليه، سواء من الداخل أم من الخارج، وأصبح متأكدا من كونه على فوهة المدفع، وقد يقذف به في أي لحظة، مادامت القضيتان معلقتين دون إجابة..

لهذا، أصبح يبحر في كل ليلة بين كؤوس النبيذ، والأجساد العارية حتى الصباح، وكلما رن الهاتف مد يده إلى السماعة، وهي ترتجف من كثرة ما سمعه من الكلام البذيء، والتهديد بفصله من منصبه في أقرب الآجال، ولم يستطع الوصول إلى شيء، ما عدا انتظار الجديد في هذه القضايا، التي تزداد تعقيدا مع مرور الوقت، خاصة بعد انتشار أخبار وإشاعات، تصله من حين إلى آخر، عن وجود حديث عن اعتداءات أخرى مستقبلا، على بعض المؤسسات الرسمية، وإن حصل هذا، فالأكيد، أن أيامه أصبحت معدودة في قصر الحصن.

بعد سهرة أوصلته إلى حد الثمالة، استيقظ على رنة الهاتف، نهض مسرعا إلى تلقي المكالمة، رفع السماعة وهو على ركبتيه، ويده فوق المكتب وجسده عار كليا، لم ينطق بكلمة واحدة ماعدا: نعم، سيدي، في انتظارك.. ونهض مهرولا إلى غرفته، وهو يطلب من الخادم أن يأتيه مسرعا.. غير أن الخادم لم يستجب لطلب الزعيم، فهي المرة الأولى التي يغيب فيها عن القصر دون إذن. سأل الخدم الآخرين، فلم يعطه أي منهم إجابة واضحة، فهو لم يترك رسالة، وفي العادة لا يغيب كثيرا.

أغلق الباب من خلفه، ودخل إلى غرفته وهو يشتم: "أين ذهب ابن العاهرة من دون إذن؟"، ارتدى اللباس الرسمي الجديد، الذي لا يلبسه إلا في المناسبات، ثم أمر أحد الخدم بأن يحضر قاعة الطوارئ، ويضع على طاولة البهو، لاستقبال الضيوف، القهوة وبعض قارورات المياه.

بعد ساعة من تلقيه المكالمة، وصلت إلى الحصن أربع سيارات سوداء، تحمل كل واحدة منها على مقدمتها قطعة قماش تختلف في الشكل والرسم. هرول الزعيم إلى استقبالهم عبر الباب المخصص له، فهو لا يخرج من باب الخدم أو المدعوين، فله بابه الخاص به.. ألقى التحية عليهم، وصعد خلفهم، وهم يقومون بمسح دقيق على جدران القصر، التي علقت عليها بعض صور الحروب القديمة، وبعض الأعلام التي تزين المكان. وحين وصلوا إلى باب القاعة المخصصة للاجتماعات، سارع خطواته وتخطاهم لكي يفتح لهم الباب.

جلسوا، كل واحد في مكان، أخذ أحدهم المكان المخصص للزعيم في العادة، أما هو، فبقي واقفا ينتظر الإذن للجلوس، غير أنه لا أحد منهم طلب منه ذلك، فبقي واقفا حتى نهاية الاجتماع، الذي انتهى بعد ساعتين، وكان أطول اجتماع حضره الزعيم، منذ زمان بعيد، تداول عليه الضيوف الأربعة التهديد بأغلظ الألفاظ.

****

بعد ثوان، بدأت الصورة تظهر، بملامح كان يعرفها من قبل، وجه ضاحك حتى ظهرت أنيابه، يتوسط مجموعة من الفتيات، وأمامه مائدة طويلة تغطيها كل مواد التسمم من كوكايين ونبيذ وغيرها، يظهر من ورائه حراس يحملون أسلحة من مختلف الأنواع، في باخرة تعانق الأمواج في يوم مشمس، لم يكد يصدق أن الفيديو الذي يشاهده في هذه اللحظة، هو لشخصية سامية، بيدها الحلّ والعقد في مناصب حساسة، بل كانت له معه عدة خرجات ميدانية، حتى إلى خارج الوطن، لم يحدث أن وقعت عليه عيناه في مثل هذه الحالة، كان يظهر أنه مخلص ونقي نقاء نسمات الصباح، جلس إليه في الكثير من المرات، وتحدث معه عن حب الوطن والوفاء، عن الذود عن شرف الأمة مهما كلف الثمن، ساعده في الكثير من المرات على تجاوز بعض المصاعب التي تقف في وطن أسند إلى أكتاف رجال لا يعرفون للشرف عنوانا، همهم الجد في الثراء، حتى على حساب الأخلاق والشعوب.. رغم كل ما كان يشاهده في هذا

الفيديو والمفاجأة، التي وقع عليها، في ائتمان شخصية كانت في عينيه في مستوى الملائكة، وهاهي اليوم، تهبط إلى مصاف الشياطين، غير أنه أوقف الفيديو، وسأل نفسه في حيرة بصوت مرتفع: وإن كانت هذه حقيقته، فما دخلي أنا في حياته الشخصية؟ ولماذا أرسل إلي هذا الفيديو؟ فكل الناس تعرف أن السياسيين وكبار الشخصيات واقعون في الفساد الأخلاقي؟ وهذا ليس بجديد، وهو من المواضيع التي ملها الناس وكرهوها، وأصبحت مستهلكة عند العام والخاص، وربما من يكون نظيفا حين يدخل إلى سراديب هذا كله، ويحاط بكل هذه المفسدات، سوف يقع فيها لا محالة..

أعاد تشغيل الفيديو وهو مستغرب، غير أن الثواني التي أتت من بعد، كانت كافية ليضرب على رأسه ووجهه بقوة، وهو ينادي بأعلى صوته **impossible**، وهو ينظر من حوله، ولم يصدق ما وقعت عليه عيناه، فقد لمح شخصا يعرفه يخرج من قبو اليخت، وهو يتأبط فتاة بلباسها الداخلي فقط، ويحمل بيده كأس نبيذ، فالشخص الذي يراه أمامه في الفيديو هو نفسه من استأجر معه الشقة.. أوقف الفيديو، ونهض مسرعا، فتح الخزانة المخصصة للباس، الخاصة بهذا الشخص، فلم يجد أي شيء من ملابسه، فقد أفرغها من كل محتواها، وتنقل إلى مكان وضع الملفات والأوراق، فوجد كل الأدراج فارغة، جلس على الكرسي الأقرب إليه، وهو يضرب على رأسه وينادي: غبي غبي، كيف لم أنتبه إليه، كيف سرق مني كل الوثائق وأنا لا أدري؟

رجع إلى مكانه، يراقب ما تبقى من الفيديو، فلم يظهر الكثير، ماعدا العناق والضحك بين الشخصين، اللذين يعرفهما، واعترف في الأخير بأنه كان واقعا في فخ دبره المسؤول الرفيع، بمعية صديقه، الذي استأجر معه الغرفة.. هنا، تأكد من أنه هجر الغرفة، ربما قبل عرض الأخبار الخاصة بتلك القضية، أو ربما منذ أسبوع، بعدما التقيا في سلالم العمارة، وهي آخر مرة التقيا فيها.

بعدها، حمل الفلاش، وخرج مسرعا. وحين نزل إلى أسفل السلالم، بقي واقفا، كأنه تائه لا يدري أين يذهب، تسمر بعض الدقائق، وهو مثبت يديه على خصره، مطأطئا رأسه، غير أنه قرر العودة إلى مكان العمل، لمعرفة ماذا حدث، بينما هو يسير حتى ناداه صديق مقرب، من سيارته، وأصر على صعوده، لأنه يحتاجه في أمر مهم، وهو الوحيد الذي يستطيع مساعدته. اقترب منه واعتذر إليه، لأن هناك أمرا هاما ينتظره هو كذلك في الشغل. فأصر صديقه على توصليه والحديث إليه في الطريق. تردد قليلا ثم صعد رفقته.

****

دخل على المدير، وهو يحمل بيده خبرا عاجلا، أغلق الباب وقال له:

– أحمل إليك آخر الأخبار، وسوف تحقق السبق الصحفي في قناتنا، لكن فيه نوعا من المخاطرة، لأن الأمر متعلق بقتل بعض رجال الأعمال المعروفين والشخصيات الراقية، ولك الاختيار.

– أعطني المادة– رد عليه المدير.

مادة إعلامية في فلاش ديسك، اقترب من الكمبيوتر وشغله، ظهرت أولى الصور تحمل الكثير من الدماء، وأجسادا مرمية ومتفرقة عشوائيا، تغطي المساحة الكبيرة للقصر، يظهر فيها أن بعضهم أراد الهروب، لكن الأبواب كانت مغلقة، واختلفت وضعيات طلقات الرصاص في أجسادهم، غير أنها كانت قاتلة، كانت من محترف، في هذا المجال.

– من أين لك هذا؟ ومن هو مصدر الصور والمعلومات؟

– لا يهم، المهم ما رأيك؟ هل نضعها في الشريط الصباحي كخبر عاجل؟

– لا تتعجل. أرى أن هذا الخبر سوف يؤدي بنا إلى التهلكة، وأنت تعرف هذا جيدا، نحن نتعرض للتضييق منذ مدة، لمحتويات المواضيع التي نتطرق إليها، وهي في الغالب من أفكارك، وربما سوف يكون هذا الخبر بمثابة القطرة التي تفيض الكأس، والشعرة التي تقصم ظهر الجمل، في المقابل، لا يمكن أن نترك حادثة كهذه تمر مرور الكرام.

– على كل، لن يصل أحد إلى مثل هذه الصور، ولن تكون في متناول كل الصحفيين.

– وما أدراك أنت؟

– لا يمكن الجزم، لهذا يجب أن نستغلها، قبل أن نندم لو بثتها قناة أخرى، فليس من العدل أن نكون أول من تحصل عليها، ويسبقنا غيرنا إلى نشرها.

فكر رئيس التحرير مليا، وهو ينظر إلى الصحفي الذي بقي أمامه، يظهر عليه نوع من الحماسة من أجل عرض هذه الصور، دون النظر إلى تبعاتها، وما يحصل بعدها.. ثم طلب منه الانصراف، على أن يكلمه في الموضوع بعد أن يستشير مدير القناة.

ظهرت ملامح النرفزة على وجه الصحفي، لأن استشارة مديرة القناة في كل صغيرة وكبيرة، أصبحت تزعجه، والأكيد أنه لن يوافق على نشر هذه المادة، لذا، أغلق الباب من خلفه بالقوة، وخرج من مكتب رئيس التحرير، وهو يتمتم بكلمات مسموعة، يشتم فيها الصحافة والإعلام، وما آلت إليه في السنوات الأخيرة..

أما المدير، فشكل رقم صاحب القناة، واتصل به مباشرة، تحدث إليه بالتفصيل عن المادة الصحفية، التي قدمها الصحفي ماهر، وبعد فترة من الزمن أغلق الهاتف النقال، وشكل رقم الصحفي.

آلو، ماهر.. ما بك؟ أين أنت، لا، لا، قلت لك سوف أتصل من أجل الموضوع، نعم وافق على نشرها كما هي دون حذف ولا شيء آخر..

تنفس ماهر الصعداء، واستلقى على سريره، بعد هذا الخبر السعيد، ولم يفق إلا وقد حل الظلام، وظهر من نافذة الغرفة التي تطل على الشارع ضوء المصابيح. نهض، نزع لباسه ثم ذهب إلى المطبخ، فتح باب الثلاجة، بحثا عن شيء يأكله في هذا الوقت، لم يجد الكثير ماعدا بعض قارورات المشروبات الغازية، وبعض

ما تبقى من قطع البيتزا، التي أحضرها معه قبل أن يدخل، حملها معه ثم تقدم إلى الطاولة ليشاهد التلفاز..

****

يؤسفني ما حدث معكم، غير أن الأمر كان واضحا، وكانت النتيجة سوف تكون نفسها حينما تعرض تلك الصور. علق الأصلع على ما حدث للقناة، والتحقيق الذي طال مديرها ورئيس التحرير الذي وضع هذا الخبر عاجلا، وهو ما استنفر الكثير من المؤسسات الأمنية خاصة، واعتبرته تجاوزا لحدود حرية الصحافة، خاصة لما يتعلق الأمر بالأجانب في البلاد، وهو تهديد صريح لأمنها، غير أن بعض القنوات لا يهمها ماعدا نسبة المشاهدة لا غير، علقت أغلب السلطات على هذا الفعل.

– لم آت إلى هنا لكي أتلقى العزاء من طرفكم، ولا يهمني الأمر، لأنه مهما يكن فلا وجود للحرية المزعومة، وهي مجرد شعارات لا غير، لأن الواقع شيء آخر، ولا يمكن للصحفي أن يمارس هذه المهنة دون ضغوط أو تهديد واستفزاز، خاصة حينما يتعلق الأمر بقضايا الفساد.

– ما الأمر إذا؟ بالرغم من أن الأصلع كان يدرك تمام الإدراك أن الصحفي ماهر هنا لأمر آخر، إلا أنه لم يرد أن يتطرق إليه بنفسه، وأراد أن يسمعها من عنده.

– أريد معرفة العمل الذي يقوم به الصديق، الذي كان مستأجرا معي الشقة، وهل هي مجرد صدفة أم بفعل فاعل؟ ولماذا؟

– أولا، لا يوجد شيء في هذا العالم يسمى صدفة– رد عليه الأصلع، وهو ينحني لكي يأخذ كوب القهوة..

العالم، يا صديقي، مبني على مبدإ السببية، أي إن لكل حدث سببا، مهما كان نوعه، بالنسبة إليك، أنت تدرك تماما ما تقوم به كصحفي، وما تقدمه إلى حد الساعة بالنسبة إلى الكثير من المشاهدين هو جرأة زائدة، ويسبب الكثير من المشاكل، ويطرح الكثير من التساؤلات، حين يتعلق الأمر بطرح قضايا الفساد أو الأمن وغيرها، والتطرق إلى شخصيات رفيعة المستوى في حصة تلفزيونية، لم يكن في ما مضى متاحا، وكان بعيد المنال مهما كان نوع الصحفي أو المؤسسة الإعلامية، لذا، ونظرا إلى طرحك الكثير من المقاربات التي أصبحت تقلق العديد من الأطراف، وجب وضعك تحت المراقبة بطريقة ذكية، لم تنتبه إليها ولن تكشفها، مادام صديقك في الشقة يعمل في شركة خاصة كما ادعى.

– جفت الكلمات من لسانه، فقط بقيت عيناه معلقتين إلى النافذة، التي تطل على عمارات شاهقة، يقلب "الفلاش ديسك"، الذي لا يزال يحمله معه، وهو ينظر إليه، كأنما يعيد رؤية الدقائق التي سجلها، ثم رفع رأسه إلى الأصلع:

– وماذا يمكن أن يأخذ من عندي، فنحن لا نلتقي إلا في ساعة متأخرة من الليل، وحديثنا بقي فقط في حال البلد، دون التعمق في التفاصيل.

– الأمر ليس ما يريده منك، وهو يعرف هذا، لكن حين نصل إلى تكميم الأفواه، سوف تدرك أن الحال سوف تدوم على ما هي عليه، ولن يتغير في ظل الظروف الحالية، لذا، أنت وأمثالك ومن يدعون إلى التغيير سوف تكونون الأقرب دائما إلى فوهة البركان، وحين يأتي اليوم الذي يجب القضاء عليك، سوف يكون بطريقة عادية، مثلها مثل حادث يومي يحدث مع أناس عاديين لا ينتبه إليه أحد، كحادث مرور أو شجار بينك وبين أحد المارة، وتدفن في أقرب مقبرة لأهلك، وتدفن كل طموحاتك ومشاريعك التي خططت لها، لكنك أردت بناءها على أحلام غيرك، غير أنكما مختلفان في طريقة الحلم وطريقة توفير الأسباب. ربما أنت تحمل رقما تسلسليا في أجندة، وسوف يأتي اليوم الذي يصلون فيه إلى ضرورة تجاوز رقمك إلى رقم آخر، وهذا بالتخلص منك.

طرق عقرب الساعة تمام العاشرة والنصف، من ليلة الجمعة، وبدأ الوقت بين الشخصين كأنه متوقف، ونسي ماهر حكاية صديقه في الشقة، بعدما اكتشف حكايته من طرف الأصلع، لأن الأمر أكثر من مجرد شخص مدسوس معه في الغرفة، يشتغل في شركة، لأن الأمر أعمق من كل هذا، والشخص الذي كان يقيم معه في نفس الغرفة، تصل مدة تعارفهما إلى ثلاث سنوات، وربما يعرف عنه الكثير وأكثر مما يتصور دون علمه، طفت إلى ذهنه بعض الخرجات

التي قضياها معا، خاصة الليلية منها، التي كانت تطول حتى الصبح تقريبا، ويعودان إلى الغرفة، وقد أتعبتهما كثرة الحديث والشرب، وينامان بلباسهما حتى منتصف النهار من اليوم الموالي.. من غير هذا، لم تكن بينهما ذكريات قد يستطيع الصديق الغريب أن يبني عليها أفكاره أو أحكامه، لكن كل شيء قابل للتحويل والتأويل، فمجرد السهر في ملهى أو رفقة بعض فتيات الليل، قد يتحول في يوم ما إلى مادة دسمة لمن يريد الإيقاع بك، وهو ما أصبح متداولا مؤخرا، حيث أصبحت القضايا الأخلاقية الأكثر تداولا بين الناس، وأصبح كل فرد ليس ببعيد عنها، في ظل التكنولوجيا الحديثة، التي تنقل الوقائع بأدق التفاصيل، سواء في ما يخص المكان أم الزمان.

تركه الأصلع مستلقيا في مكانه، دون أن يتحدث إليه، وحين نهض يبحث عن الساعة، وقعت عيناه على الساعة الثانية صباحا، والغرفة مظلمة، ماعدا بعض زواياها التي أنارتها أضواء المدينة. مد يده إلى حذائه ونزعه، ثم رفع الغطاء ورماه فوقه، وحين أفاق صباحا، وجد الشمس قد وصلت إلى كبد السماء، والأصلع غير موجود في الغرفة.

****

حضر لنفسه كوب قهوة، وأتبعه بسيجارة، يمصها بقوة، وهو يركز نظره في فنجان القهوة الذي أمامه، كان يحدث نفسه ويعيد ما حدثه به الأصلع ليلة أمس، كان حديثه إلى نفسه عبارة عن الكثير من الأسئلة، وما كان يقصده

الأصلع مثلا، بقوله لقد أصبحت من الجماعة، وعضوا من الأشخاص الذين يتصدون لمجموعة الذئاب، وماذا يقصد بالذئاب؟ بالرغم من حيلته وفطنته في ترجمة الجمل والمفاهيم بحكم كونه صحفيا متمرسا، إلا إن حديثه إلى الأصلع أمسية البارحة، حمل علامة استفهام كبيرة، ولا يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة إلا من طرف الأصلع نفسه. لذا، قرر عدم الخروج من البيت، وينتظره من أجل معرفة الكثير من التفاصيل. مالت الشمس المغيب، والأصلع لا يزال خارج البيت، حتى كل ومل من الجلوس وحده، فقد تصفح الكثير من الجرائد القديمة، التي كانت مرمية أمامه، والمجلات باللغتين، الفرنسية والعربية، وبعض الكتب، التي كان يحتفظ بها الأصلع في مكتبته الصغيرة، وهي عبارة عن قصص بوليسية وجوسسة، باللغتين، الفرنسية والإنجليزية. لم يستطع الأكل، وبقي يتبع قهوة تلو أخرى، ببعض بقايا البسكويت.. أراد أن يتصل به لكي يعرف وقت دخوله، لكنه تذكر أنه طلب منه في الكثير من المرات عدم التواصل معه في أوقات النهار، إلا للضرورة القصوى، لذا، اختار الجلوس والانتظار حتى يأتي ويحدث بما يجول في خاطره.

حين دقت الساعة تمام العاشرة مساء، سمع الباب يفتح، كان مستلقيا على أريكة قديمة، تآكلت كل جوانبها لقدمها، وحين دخل الأصلع، اعتدل في جلوسه، فتفاجأ بشخص آخر رفقة الأصلع، يظهر على ملامحه نوع من القسوة، يلبس لباسا رسميا دون ربطة عنق، ثبت النظر عليه دون أن يكلمه، ثم ذهب

مباشرة إلى المطبخ، وعاد بعد قليل يحمل معه قارورة ماء وكأسا، وجلس على الأريكة المقابلة له. أما الأصلع، فنظر إليه نظرة، فسلم عليه ومد إليه يده، وناوله بعض الفواكه التي أتى بها. أخذها ووضعها على المائدة القريبة منه، دون أن يأخذ منها.

– كيف حالك؟ يظهر أنك قضيت نهارك كله هنا في البيت؟

– نعم، اخترت البقاء هنا، فليس لي حاجة إلى الخروج، ما دمت لا أعمل، وهو يومي الأول في البطالة..

مد الأصلع يده إلى كيس الفاكهة، وأخرج منها تفاحة كبيرة، قام بغسلها ثم جلس إلى ماهر مرة أخرى...

– ومن قال إنك بطال؟ البارحة قلت لك مرحبا بيننا، نحتاج إلى شخص آخر يفيدنا في عملية تنظيف بعض المناصب الحساسة..

– نعم، بالمناسبة، لقد بقيت هنا في البيت أنتظر رجوعك من أجل معرفة هذا، وما نوع علاقتي معك ومع جماعتك كما تقول.. ولعلمك، أنا لم أمارس صيد الذئاب من قبل... ثم حول نظره إلى الشخص الغريب، الذي جاء مع الأصلع، الذي بقي صامتا يحمل كأس ماء بيده.

– كنت أعرف أن الفضول يقتلك، من أجل معرفة ترجمة حديثنا البارحة، فضول صحفي، وأنا أتفهم ذلك، لكنني تركتك تستريح، ولعل الشخص المناسب الذي يستطيع أن يشرح لك كل التفاصيل، هو الذي أمامك...

حول ماهر نظره إلى الغريب، الذي يجالسه منذ ساعة تقريبا، دون الحديث، وما إن لمح إليه الأصلع بالحديث، اعتدل قليلا في جلسته، ومد يده إلى ماهر لكي يسلم عليه.. حركة، استغربها ماهر، لكنه مد هو الآخر يده إليه: تشرفنا...

– أعرفك بنفسي، العميد، ويكفيك الاسم دون تفاصيل أخرى، بالنسبة إليك، أعرفك، وكنت أتابع بعض أعمالك في القناة، وحدثني عنك الأصلع، في الكثير من المرات، مرحبا بك بيننا.

– الكل يرحب بي، لكن، إلى حد الساعة، لم أعرف نوع عملي، ولا ما هي مهمتي.. فربما، أرفض التعامل معكم.

– "يضحك"، العمل معنا، وليس عندنا، وفيه الكثير من المحفزات المادية.

– في بعض الأحيان، نعمل من أجل المبادئ، ليس إلا..

صفق العميد تصفيقا خفيفا، وهو يبتسم، وينظر إلى الأصلع، الذي يستمع إلى الحديث دون مشاركة، تحية كانت عبارة عن تحية منه للصحفي على كلامه هذا، غير أن ماهر اعتبرها سخرية منه.

– أعتبر الحركة سخرية..

– لا، فقط عبرت لك عن سعادتي، لكونك الشخص المناسب الذي نريده.

– أكرر القول، إلى حد الساعة، لم أعرف ماذا تريدون مني بالضبط..

– شيء بسيط وسهل، ولن تحيد عن مهنتك الأصلية، وهي نشر الأخبار.

– أنت تعرف أنني طردت من القناة.. فكيف أنشر لكم الأخبار التي تريدونها؟

– يا سيدي، هناك الكثير من الوسائل، في ظل تطور التكنولوجيا الحديثة، وأنت تعرف هذا، اليوم لدينا منصات لشبكات التواصل الاجتماعي بكل أنواعها، يمكن أن تحقق السبق، أكثر من أي وسيلة تقليدية أخرى.

– الآن، فهمت، وما نوع المادة التي أنشرها لكم؟

– بلا حدود، ولن يكون هناك من يطردك بعد نشرها

سكت ماهر دون أن يرد، ثم مد يده إلى كيس الفاكهة، وأخرج منها حبة برتقال، بقي الأصلع ينظر إليه، دون أن يكلمه، أما العميد، فأكمل الماء المتبقي في الكأس، ثم وضعه على الطاولة وانصرف...

– أعرف أنه بقيت بعض التفاصيل والنقاط المبهمة بالنسبة إليك، لكن كل شيء في أوانه.

– ليس بعضها فقط، هناك الكثير منها، وأود أن أبدأ من مجموعة الذئاب التي حدثتني عنها.

– الوقت غير مناسب الآن، لكن أعدك بأننا سوف نتحدث بالتفصيل الممل في وقت لاحق، فقط أذكرك بشي يجب أن تعرفه، قبل أن تختار قبول العمل أو رفضه معنا، لقد أصبحت اليوم مستهدفا من طرف بعض الأشخاص، بعد الصور التي نشرتها في القناة، وعن نفسي، أنا لا أرغمك، فقط فكر جيدا.

– "يضحك"، الآن فهمت لماذا اخترتني، ليست صدفة أو لمهنيتي كما كنت تردد علي منذ الأمس، كنت تخطط منذ البداية لأن توقع بي بنشر هذه الصور،

ومن ثم الضغط علي بالعمل معكم، حيث أجد نفسي مجبرا لا مخيرا، بعد كل ما حصل، فقدت وظيفتي، واليوم أنا متهم من طرف بعض الأشخاص كما تقول.. إذا، ما الفائدة من أن يأتي صديقك، صاحب الزي الرسمي، لكي يقص علي حكاية عملي معكم، على أساس أن لي الاختيار، وأنتم أوقعتموني في المصيدة؟؟

– هل تعتقد أننا لا نملك شخصا آخر يمكن أن يقوم بالمهمة التي أوكلت إليك؟ أنت مخطئ، بل نستطيع أن نقوم بها بمفردنا، دون التواصل معك أو مع شخص غيرك، لكن كما قلت لك، نريد توسيع شبكتنا، وأن يصبح لكل فرد فيها مهام خاصة به، أي لكل دوره، حسب اختصاصه، بالإضافة إلى هذا، يجب أن تعرف أنك هنا تقدم خدمة للوطن أولا، ولنفسك ثانيا، لأنك واقع لا محالة في يوم ما، إذا، عملك هو مقابل حمايتك... تحدث الأصلع إلى ماهر بنوع من النرفزة، التي ظهرت في ملامحه وحركاته..

بقيا ينظران إلى بعضها دون كلام لبضع ثوان، ثم انصرف الأصلع، وتبعه ماهر بعد نصف ساعة أو أقل.

****

تطورت الأحداث بشكل سريع، وتفاقمت الأزمة مع بعض الدول، التي ذهب بعض مواطنيها غدرا، كما عبر عنه الكثير من المسؤولين في المؤتمرات الصحفية.. فبعد الحادثة، لم تبق الأمور سرية، ولا يمكن لها أن تبقى كذلك، لأن الصور التي نشرت أظهرت للعامة بعض ما كان يحدث في الخفاء دون

علمهم، للتكتم المطبق، في مثل هذه القضايا، كان الزعيم يطالع الأخبار يوميا ويقوم باجتماعات دورية مع الكثير من الأجهزة الأمنية، التي تبحث في مثل هذه القضايا، غير أن النتيجة واحدة، ولم تسفر كل القراءات والاستجوابات عن شيء جديد يمكنه من رسم أول خطوة للوصول إلى منفذي العمليتين السابقتين، فصار بقاؤه كزعيم مهددا، لذا، أشرف بنفسه في بعض الأحيان على مشاورات مع فرقه في كل الأجهزة، ولم يخف على الجميع ضرورة الوصول إلى نتيجة إيجابية، حتى ولو تخطى الأمر كل لخطوط الحمراء، لذا، أعطى لهم الضوء الأخضر في مهمة البحث عن المجهول، الضوء الأخضر، تجاوز الحدود، وتحول من مجرد تحقيق في جريمة قتل، إلى تصفية بين الأفراد، وأصبح الأمر مثل حرب العصابات في الشوارع، وظهر ما كان يخبئه الكثير من قواد بعض الأجهزة، التي استغلت هذا الضوء الأخضر، وحولت حياة بعض الأفراد إلى جحيم أحمر، وهم لا يدرون لماذا وكيف.

رسمت هذه الاعتقالات العشوائية والضرب على أوتار الترهيب والتخويف، مشهدا آخر، لذا، تحول الصراع إلى كل الأمكنة دون استثناء ومع كل الأشخاص، وفي الوقت الذي كان الزعيم ينتظر حلا للغز الذي قضى على النوم في جفونه، تحولت الأمور إلى فوضى كبيرة، طفا خزها على سطحها، لذا، كان من الواجب عليه إعادة ترتيب الأمور، والدعوة إلى ضرورة التحلي

بالعقلانية، والتوقف عن العشوائية، التي اتخذها الكثير من أتباعه، في البحث عن حل طلاسم قضية تزداد تعقيدا من يوم إلى آخر.

في هذا الوقت، وفي الطرف الآخر، تحرك الأصلع من أجل التصدي لمثل هذه المحاولات.. محاولات، اعتبرها استفزازية، لأنها في الغالب طالت الكثير من الأشخاص، الذين لا علاقة لهم بما يحدث، كما اعتبرها بمثابة انتقام من مجهول، وهو آمر غير طبيعي، يحدث من هيئات عليا في حق الأبرياء.

****

رن هاتف ماهر، وكان يتجول في الشارع كأنه مجنون، منشغل البال.. وهي المرة الأولى التي أحس فيها بأنه ليس قادرا على اتخاذ القرار، أمران كلاهما مر، طرف الأول خوف، والطرف الآخر مجهول الهوية. مد يده إلى جيبه، ونظر إلى هاتفه، وجد رقم الأصلع، لم يكد يصدق أنه اتصل به في ساعة من النهار، فلم يحدث مرة أن طلبه على الهاتف في هذا الوقت، أدرك حينها أن الأمر استعجالي.. ضغط على زر القبول..

– آلو...

– وافني بعد نصف ساعة في مفترق الطرق.

– لكنني بعيد، ولا يمكن أن أصل في الوقت..

– لا يهم، المهم أن أجدك عند مفترق الطرق، سوف أنتظرك. وأقفل الهاتف.

نظر ماهر إلى الهاتف، وهو يتساءل: يا ترى، ما الأمر المستعجل الذي جعل الأصلع يتصل به في هذا الوقت؟ ولماذا كان موعد اللقاء في مفترق الطرق؟... نظر إلى من حوله ثم اتجه إلى الشارع الرئيس، من أجل البحث عن سيارة أجرة للحاق بالموعد، لوح لأول سيارة أمامه، وصعد فيها.. سأله السائق: إلى أين؟ فرد عليه: إلى مفترق الطرق عند الساعة البريطانية الكبيرة.

سارت سيارة الأجرة أكثر من 50 دقيقة، ثم توقف السائق، مد ماهر يده إلى جيبه وأخرج الثمن، وانصرف، ناداه السائق من أجل ما تبقى من ثمن الأجرة، لكنه رد عليه بالاحتفاظ بالباقي...

وصل عند الساعة البريطانية، وقف ينظر من حوله، ثم أخرج الهاتف المحمول من جيبه، وقبل أن يتصل، سمع صوتا يناديه باسمه من الجهة الأخرى للشارع، رفع رأسه فوقعت عيناه على شخص لم يكن يعرفه من قبل، يلوح له بيده بالتقدم نحوه، شخص في لباس رياضي في الخمسينيات من العمر، تظهر على ملامحه تجاعيد دقيقة، لكنه لا يزال يحتفظ بقده الرشيق.. تحول نحوه إلى الجهة الأخرى، مد إليه يده ليسلم عليه، ولم يزد فوق هذه التحية شيئا، ثم طلب منه التقدم معه في السير حتى وصل إلى نهاية الشارع. انعطفا يمينا، وبعد خمس دقائق من السير والصمت، توقف وطلب من ماهر أن يدخل إلى عمارة، تظهر أنها على وشك السقوط. عمارة، من ثلاثة طوابق، تظهر أنها خالية من السكان، ماعدا الطابق الأول، الذي نشرت في شرفته بعض الملابس، التي

يظهر عليها أنها معلقة منذ مدة.. مشيا في بهوها ثم وقفا عند الباب الثاني، الذي لا يظهر أنه باب حتى تدقق النظر فيه، لأنه يشبه تركيبة الجدار، لكن به قفلا، ضغط عليه الشخص الغريب، فظهرت أمامه لوحة إلكترونية للبصمات، وضع يده عليها، فسمع طرقا خفيفا، انفتح بعدها الباب وكانت المفاجأة.. قاعة كبيرة مجهزة بأعلى التقنيات التكنولوجية، يسود فيها الصمت، ماعدا طرق الأنامل فوق لوحة الحروف، أو صوت المذيعين، ينقلون الأخبار عبر شاشات معلقة في كل جدار، مقسمة إلى مكاتب صغيرة، يجلس إلى مكاتبها كلا الجنسين، كل منهمك في شيء، بين مشاهدة الأخبار والكتابة، وطباعة الأوراق.. وبينما هو معلق العينين على ما أمامه، حتى ظهرت مفاجأة أخرى أمامه، حيث وقع بصره على شخص يعرفه من قبل، من بين الذين يشتغلون في هذا المكان، وهو الشخص الذي كان يستأجر الغرفة معه.. لوح له بيده بابتسامة، وهو يحمل أوراقا كثيرة في يده، لكن ماهر لم يرد عليه، وبقي ينظر إليه، وهو مستغرب وجوده في هذا المكان، حتى ظن أنه وقع في فخ، فالأصلع طلب منه ملاقاته، ولم يقل له إنه سوف يرسل إليه شخصا لكي يأخذه، غير أن الشكوك تبددت حين رفع رأسه إلى طابق علوي في نهاية القاعة، فوقعت عيناه على الأصلع، يطلب من الشخص الذي معه الانصراف، وطلب من ماهر الصعود في السلالم التي تؤدي إليه مباشرة.

– تعال، تفضل، اجلس..

– شكرا، بصراحة، لما لمحت صديقي في الغرفة هنا، أحسست بأنني وقعت في فخ..

–هههههه، لا تستغرب، هو يعمل معنا منذ سنوات، من قبل حتى أن يستأجر معك الغرفة.

– آه، وما قصة سكنه معي في الغرفة، وقد أكدت لي من قبل أنني مراقب من طرف الذئاب كما تقول؟

– نحن ذئاب ، مثلهم، لكننا نختلف في الأهداف فقط..

– هي المرة الأولى التي أعرف فيها، أن هناك فصيلتين من فصائل الذئاب، الخير منها والشرير، وهو أمر غامض بالنسبة إلي، ولا أظنه كذلك في نفس الوقت، لم أر يوما ذئبا يمسح على رأس خروف رحمة به وعطفا عليه.

– تفسير منطقي، لكن لا يمكن أن نقول لك هم الذئاب ونحن الثعالب، فالمعادلة قد تصبح غير عادلة، هم ذئاب على الأبرياء والأشخاص العاديين، ونحن ذئاب عليهم وعلى نواياهم، وما يريدون القيام به، فهل أقنعتك بأن هناك فصيلتين من الذئاب؟

– مستغربا... بصراحة، تحليل منطقي ومقنع.

****

كان واجبا علينا أن نضحي به، وأنت تعرف هذا مثلي..

فتح مدير القناة الحديث مع رئيس التحرير، الذي لم يهضم فكرة طرد ماهر من الشغل بهذه الطريقة، معتبرا إياه من خيرة الإعلاميين والصحفيين، الذين عمل معهم طيلة مشواره، وكان من الواجب الدفاع عنه.

– أعرف جيدا نوع العلاقة التي كانت تجمعكما، لكن لا يمكن أن نجازف ونخاطر ببقائه في القناة، تحملنا الضغط من قبل لما يعرضه من مواضيع، لكن ما قدمه في الأيام الأخيرة، يعتبر تجاوزا خطيرا، قد يوقعنا في ما لا تحمد عقباه، وهو نفسه كان يعرف.. يجب أن يتوقف في هذه القناة، حفاظا على وجودها، على الأقل ضحى بنفسه من أجل الباقين فيها.

–نعم، أعرف أنه كان مستعدا لترك منصبه، أو طرده، أو حتى سجنه، لكنه كان مصرا على أن ينشر هذا الخبر بالبنط العريض، في القناة، لكن ما حدث معه، يعتبر سابقة في الإعلام والصحافة، ويفتح الباب كذلك على تكميم الأفواه، وتصبح الصحافة والإعلام مجرد أبواق لنشر وعلاج المواضيع التافهة، التي لا تعكس الواقع حقا، أي تصبح في يد من يسيرها على هواه، وبهذه الطريقة، يكون لزاما علينا أن نسقط عليها لقب السلطة الرابعة.

–هههههه، منذ متى كانت السلطة الرابعة سلطة حقيقية؟ أنت تعرف جيدا أن السياسية تتجاوز هذا الأمر، وحين تحضر السياسية يسقط أمامها الهدف المرجو من كل هيئة، أي السياسي هو من يتحكم في زمام أمر الكثير من الهيئات الرسمية، لتجدها في الأخير مجرد مؤسسات خاوية، تعلق الشعارات النبيلة

والخدمات الجليلة على أبوابها، لتوهم الأشخاص بمهامها، لكنها تسير وفق سياسة سطرت في الخفاء، تخدم مصالح بعض الأفراد على أفراد أخرى، أو جماعات، أو تكتلات، أو حتى أجندات خارجية.

– على كل، مهما يكن، فإن الإعلامي ماهر بالنسبة إلي، هو خسارة كبيرة، ليس فقط للقناة، ولكن للإعلام ككل..

أكمل رئيس التحرير حديثه مع مدير القناة، ثم حمل نفسه وخرج وهو يتمتم بكلام غير مفهوم، وعلامات عدم الرضا تبدو على ملامحه، لكنه يعرف في نهاية الأمر أنه مجرد أجير، مثله مثل ماهر، وربما سوف يأتي الدور عليه.

بين المصلحة العامة لقناة، وبين مهنية ماهر، خط رفيع، وربما يكون الاختيار الأفضل، حين طرده مدير القناة، لكنه ربما كذلك اختيار خطأ، فربما حينما نتنازل اليوم سوف نصبح في يوم آخر عرضة لمطالب أخرى، لن تتوقف، ونجد أنفسنا مجبرين على تنازلات أخرى، قد تصل إلى الشرف، وهو ما حصل في الكثير من المرات.. بسبب العديد من التنازلات، انتزعت أراض، واحتلت أقطار، لمجرد تنازل أولي، كان يظهر أنه مفتاح النجاة أو السلام، أو البقاء أو الاستقرار، لكن، ظهر في الأخير، أنه فأس كبيرة هدمت كل ما كنا نخاف عليه.

****

جلس الأصلع في أريكة منتفخة الجانبين، وماهر قبالته

– قبل أن أحدثك في موضوع مهم، وجب علي أن أقر لك بشيء مهم هو كذلك، لقد لاحظت أن الشخص الذي كان يستأجر معك الغرفة يشتغل معنا كما حدثتك، نحن في الأصل من أرسلناه إليك..

– واو... لم أكن أنتظر هذا منك.

– أعرف، لكن الهدف لم يكن التنصت عليك، أو شيء آخر، الهدف كان حمايتك.

– حمايتي؟

–نعم، وصلتنا بعض التقارير التي تؤكد وجوب استهدافك، بطريقة ما، انتقاما منك على الكثير من المواضيع التي تطرحها في القناة، التي كانت تصب أغلبها في أمور الفساد والجريمة ومختلف التجاوزات، التي تحدث، يعني بالمختصر المفيد، وضعت يدك في فم الثعبان، لذا لا تنتظر النجاة، هذا ما دفعنا إلى وضع مفيد هذا معك في الغرفة.

– مفيد؟ حتى الاسم مستعار.. كذبة كذلك؟

– نعم، ولا يهم على كل حال، أنت اليوم بيننا، وسوف تتعرف عليه عن قرب أكثر من معرفتكما ببعضكما لما كنتما في نفس المسكن.

– وصلنا إلى مرحلة أخرى من حربنا مع أصحاب القرار، وسوف تكون المرحلة الأشرس، لأنها سوف تمس الكثير منهم.

– تقصد الكثير من الجثث؟

– لا، الأمر لا يتعلق بالجثث، الجثة لهم راحة، لكننا نريد أكثر من هذا، نريد أن نفضحهم، نريد أن ننشر غسيلهم أمام كل الناس، نريد الانتقال إلى مستوى آخر، وهو الضغط النفسي والحرج، خاصة عندما يتعلق الأمر بشخصيات رفيعة المستوى.

–إذا المرحلة تتطلب الكثير من القرب إليهم، ولا أظنهم سوف يسمحون لأي غريب بالتقرب منهم، في ظل الظروف الحالية، فقد أصبح أغلبهم في حيطة وحذر، بل منهم من قرر عدم التواصل، مثلما كان في السابق، لقد أحس أغلبهم بأنه يمكن أن يكون هو الرقم القادم.

– نعم، أعرف هذا، كنا ندرك أن مرحلة التضييق عن طريق القتل، التي قمنا بها، سوف توصلهم إلى هذا، ومن ثم الانتقال إلى المرحلة الأولى، التي تعتمد على التكنولوجيا فحسب، لهذا، قررنا أن تكون واحدا من هذه المرحلة المهمة، ربما هي حفنة تتجاوز الأخلاق والضمير، لكن يجب أن ننتقل إليها من أجل تطهير الحصن من تلك الوجوه القذرة.

– هل يمكن أن تحارب الجريمة بجريمة أخرى؟

– في الحقيقة، هو ليس منطقا صحيحا أو مسلما به، لكن في بعض الأحيان، يجب أن يكون بمثابة تهديد صريح للمفسدين، من أجل إلجامهم عما يقومون به، وكما ذكرت، أصبح كل من لديه قضايا مشبوهة في أي مجال، يعتبر نفسه

القادم على القائمة، أي إن الطريقة نجحت في إيصال الرسائل إلى الآخرين عبر جثث بعضهم الآخر.

– وماذا عن المرحلة التي عبرت عنها بأنها الأهم؟

–هي طريقة قديمة متجددة، خاصة في ظل تطور التكنولوجيا الحديثة، وتقوم في الأساس على الضرب على وتر حساس، وهي الحياة الخاصة للأشخاص، في بداية القرن الخامس عشر، وظهور الثورة الصناعية، وفتح مجال شغل المرأة، التي أصبحت لها دور فعال في الإنتاج، استغلت المرأة كوسيلة في أهداف أخرى.

– لم أفهم؟

– لا تقاطعني، أنصت فحسب، تعرف أن نقطة ضعف الشخصيات الكبيرة هي النبيذ والنساء خاصة، لهذا، يستغل الكثير من الأشخاص، الإيقاع بهم في هذا الوحل، حتى يلطخوا حياتهم الشخصية التي تعتبر مقدسة، وهذا عن طريق التصوير أو التسجيل، في الفنادق أو الرحلات أو في الأماكن الخاصة، التي يختارونها من أجل ممارسة عقدهم النفسية، وجموحهم الذي يتجاوز الحدود، إلى أن ينزل بعضهم إلى فصيلة الحيوانات في الشهوانية، لهذا، يكون التهديد بنشرها أو التشهير بها، بمثابة ضربة قاضية إليهم، فيصبحوا بعد ذلك بمثابة دمى تحركها أياد أخرى كما تشاء، لذا، لا تستغرب السمع والطاعة التي تراها منهم، دون رد فعل حتى ولو كان الأمر يتعلق بالخيانة العظمى.

– لكن، لا تنتظر من هذه الحرب القذرة، أن تكون مثل لهو واستمتاع، دون أن يكون هناك رد فعل من الطرف الآخر، وما أدراكم أن بعضكم أو جلكم واقع في الوحل الذي تتحدث عنه؟

–هل أنت كذلك؟

اندهش ماهر من السؤال، وظهر على ملامحه نوع النرفزة، ثم نهض، ثم التفت إلى الأصلع..

– ربما هذا ما كنتم تريدونه أنتم كذلك معي، حين أرسلتم هذا المسمى مفيد ليسكن معي، وربما كل من يشتغلون معكم هنا، حضرتم لهم ملفات أخلاقية من أجل الضغط عليهم.

– إلى حد الساعة، لم نجبرك على الانضمام إلينا.

– لم أرفض..

– حتى لو رفضت، الباب أمامك، تخرج منه سالما كما دخلت، فقط، التزم الصمت بعدها، لكن إن خرجت، فلن تكون هناك فرصة ثانية للعودة، وأنا متأكد من كونك لن تستطيع أن تكمل ثلاثة أيام حرا، بدءا من هذا اليوم.

أحس ماهر لأول مرة بالخوف، فقد أصبح بين مخافتين، وهو اللحظة بين الذئاب، فكيف يمكن أن يصدق كل ما سمعه، هل هو مجرد تخويف من الأصلع من أجل إقناعه بالعمل معهم؟ أم هي حقيقة يمكن أن يدفع روحه ثمنا لها؟ وكيف

يستطيع أن يعرف الصادق من الكاذب في هذا الأمر.. لكنه مجبر على اتخاذ القرار المناسب، وإن كان أحلى الأمرين مرا، كما يقال.

****

تسارعت الأحداث، لكن النتيجة واحدة، ولم يستطع الزعيم وفريقه أن يصلوا إلى حل اللغز الذي بقي مبهما إلى حد الساعة، وزاد السؤال والضغط من قبل الجهات التي أحست بأن الأمر خطير، وأنه يجب أن تحل أحداث هذا الكابوس عاجلا، وإلا سوف يأتي على الأخضر واليابس، ويأتي على تهديم المشروع الذي كان يخطط له من زمن بعيد، وإن حصل وتهدم فلن تقام له قائمة مرة أخرى، وحين يكتشف أمرهم، سوف يعلقون في المشانق نهارا، أو يصلبون أمام الملإ، وهو أمر غير مرغوب فيه، غير أن بعضهم أسر إلى بعضهم الآخر، بأنه لو سقط سوف يسقط الجميع معه، والفرصة الوحيدة التي بقيت أمامهم اليوم هي الوصول إلى من ارتكب هذه الجريمة المنظمة، التي مست أركان هذه المؤسسة التي عرفت استقرارا كبيرا، منذ أزمنة بعيدة، ولا يمكن أن تهدم بين عشية وضحاها، وتذهب كل المجهودات، التي بذلت من طرفهم ومن طرف من سبقهم إليها، هباء منثورا، حتى ولو كان على حساب أقرب الأقربين منهم، أو المئات من الجثث.. المهم هو السعي بكل الطرق للمحافظة على ماهية هذا الحصن ومهامه التي وضع من أجلها منذ زمن بعيد.

تزامن هذا مع التخطيط المحكم، الذي حضره الأصلع رفقة الجماعة، واقترب الوعد من أجل تقديم هذا الحصن على رؤوس كل من بداخله، لكن البداية سوف تكون بعرض الكثير من قضايا الفساد، التي قام بها العديد من المسؤولين والضباط في هذا الحصن، والبداية تكون من "ابن العاهرة"، الزعيم، كما يسميه الأصلع.

– سأل الصحفي ماهر الأصلع، كيف يمكن أن توقع من هو متحصن في حصن، أم هي مجرد مزحة مع الأصدقاء؟

– الأمر ليس مزحة، فقط يجب أن تعرف أنني كنت خادم هذا الزعيم منذ فترة طويلة، تصل إلى 15 سنة، وتتبعت كل حركاته الصغيرة والكبيرة، وعلاقاته المشبوهة، خاصة مع النساء، وهذا هو الوتر الحساس الذي سوف أضرب عليه في الأيام القادمة.

– لم أفهم خدمتك له منذ 15 سنة؟

– نعم، أنا من كان يقود ليلا الخمر والنساء في القصر، أنا من كان يخدمهم في ليالي المجون، التي لا تنتهي، عشت معهم فترات عديدة، ليس في القصر فحسب، بل حتى خارجه، تجولنا في الكثير من المناطق، والتقينا الكثير من الأشخاص، الذين لم يكن همهم أبدا الوطن، بل كان القوة والسلطان، حتى ولو على حساب الأخلاق والضمير، عاثوا في الوطن فسادا، ما يحق فيهم اليوم، لن يساوي شيئا، مقارنة بالخيانة التي ساروا عليها منذ زمن بعيد.

– غريب، كيف استطعت أن تعيش مع ممثلي الفساد أكثر من 15 سنة؟

– الأمر بسيط، ولا يتطلب الكثير من الجهد، فقط التضحية من أجل مستقبل أفضل، يجب أن تحمل بداخلك ضميرا حيا، ويجب أن تتجنب الأهداف قصيرة المدى، بل التفكير دائما يكون في تحقيق الهدف الأسمى، بالإضافة إلى هذا، يجب أن تضبط النفس في مثل هذه المهمات، التي تتطلب الصبر ثم الصبر.. هذا، ما لاحظناه عندك أنت، والدليل، أنه لما عرضنا عليك نشر تلك الصور لم تتردد، ولم تسأل، رغم أنك كنت لا تعرف الأشخاص المعنيين، وعندما قدمنا لك التفاصيل، انتقلت إلى الخطوة الثانية، وهي عرض الصور على الإعلام، وتلك الخطوة عملت عملتها اليوم، فقد رجت الحصن من أساسه، واليوم نحس بأن هناك تشتتا في التفكير.. والعشوائية والاعتقالات الأخيرة، برهنت عن التخبط الذي يمر به الحصن حاليا.

– أكيد، تلك خلفيات من أجل تحطيم هذا الحصن؟

– هو مشروع كل واحد منا، مشروع الحفاظ على هذا الحصن، هو واجب وأمانة في رقبتنا، يجب ألا يترك في أيدي الذين يعبثون به يمينا وشمالا، من أجل حفنة من دراهم أو توسيع شبكة النفوذ، واستغلال السلطة من أجل الحسابات الضيقة.

– لكن، ألا ترى أننا متأخرون في الوقوف ضد هذه الممارسات التي عشناها منذ فترة زمنية بعيدة؟

– صحيح، تأخرنا كثيرا، لكن لم يفت الوقت من أجل تدارك الأمر، مادام هناك مخلصون من أجل التضحية بوقتهم وبجهدهم وحتى بمنصبهم من أجل كشف عورة كل مفسد، وتقديمه إلى الجهة التي تعتني به، وفق القانون.

– أكيد، أن لكل فعل رد فعل، فهل أنتم مستعدون لهذا؟

– في كل حرب طرفان، فيها ضحايا ومساجين، فيها من يفوز بالمعركة وفيها من يفوز بالحرب، ولا يمكن الجزم بالفوز دائما، لكن الأكيد أن الخير سوف ينتصر لا محالة، وإن لم نحققه نحن سوف يأتي من يحققه بعدنا، المهم هو رسم الطريق الصحيح أمام الأجيال التي تأتي من بعدنا، ولا نترك جيلا كاملا يعيش في نفس النفق الذي عاشه جيلنا، وحتى الأجيال التي سبقتنا، أكيد أن الأضرار متفاوتة، لكن الممارسات تبقى واحدة.

– على كل، الكثير من الأمور والأحاديث والأهداف أقنعتني بالعمل معكم، وفق ما ذكرت لي سابقا، وبصراحة، أحس بأن هناك هدفا أسمى سوف أدافع عنه، هذا إذا سارت الأمور وفق الخارطة التي رسمت لي من قبل.

****

قبل عشريتين، من هذا التاريخ، مر الحصن بعدة تقلبات واهتزازات، كادت أن تعصف به، غير أن الكثير من المخلصين استطاعوا أن يحافظوا على وجوده، وأن يجنبوه الدمار الشامل، كما حدث مع الكثير من الحصون، وعادت الحياة إلى مجاريها، رغم الكثير من التشوهات التي تركتها تلك الاهتزازات، سواء

في الواقع أم في النفوس، خاصة عند الجيل الذي عاش تلك المرحلة، واستقر الأمن والسلام بعدها على جروح لم تندمل، وآهات وصياح ألم كان يدوي زوايا الحصن كتذكار على مأساة عمرت هنا طويلا، غير أن وتيرة النمو والتطور بقيت تراوح مكانها، وهو أمر غير طبيعي في ظل وجود الكثير من الثروات الطبيعية والبشرية، التي يمتلكها الحصن، وأصبحت ملامح الحزن تزين يوميات الكثير من سكان الحصن، في مقابل هذا، فقد زاد نفوذ بعض الغرباء، الذين لم يكونوا من قبل في هذا لحصن، غرباء يعلقون على صدورهم أوسمة كبيرة، مكتوبا عليها "خادم الحصن".. كما انتشر الفساد بشكل غريب ورهيب، لم يحدث أن وصل إلى هذا المستوى المتقدم، حتى مس كل زوايا الحصن، واستغل هذا الوضع من طرف العديد من المحسوبين على المخلصين في خدمة الحصن، ونبشوا في كل ما هو قابل للنبش، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل تقاسموا الكثير من خيرات هذا الحصن مع غرباء من خارجه، حتى شوهد أنهم يتقاسمونها مع أعداء هذا الحصن، الذين كان يهمهم الوضع الراهن فيه، من أجل التوسع أكثر فأكثر، وكان لهم ذلك، وظهرت سلوكاتهم المعادية لأهل هذا الحصن في الكثير من الخطابات واللقاءات، التي كانوا ينظمونها من أجل توزيع مفاتيح أخرى، تفتح بها أبواب جديدة في الحصن.

مرت الأيام، وظهرت بوادر ريح التغيير في الحصن، وظهرت إلى الوجود فئة كانت تنتظر أول فرصة من أجل الدعوة إلى ضرورة التغيير،

والانتقال إلى مرحلة أخرى، في حياة هذا الحصن، قبل أن يصل إلى مرحلة التعفن، وضرورة ملاحقة كل من تسبب في الأوضاع الجديدة، التي طفت على السطح في حياة الأفراد في هذا الحصن، حتى وصل الكثير منهم إلى مرحلة متقدمة من اليأس..

وانطلاقا من هذه المعطيات الموجودة في الواقع، أخذ العديد منهم في الإبحار، خارج الحصن، رغم كل العواقب الوخيمة التي قد تحصل معهم.

****

اجتمع الأصلع بكل أعضائه بمختلف مهامهم، اجتماعا وزعت فيه المهام المباشرة والميدانية، قبل البدء في عملية الضرب المعاكس، كما كان يعبر عنها في حديثه إليهم، حذرهم في نفس الوقت من ترك آثار جانبية، قد توصل إلى فرد من أفراد هذه التركيبة، التي تسعى إلى اقتلاع الزعيم وكل من معه، وكل من يمده بالقرارات من خارج الحصن، وخص بعض الأعضاء بلقاءات ثنائية، على غرار الصحفي ماهر، الذي بقي مطولا معه في مكتبه، يشرح له بعض التفاصيل في ما يخص المهمة التي أوكلت إليه، كما أنه عضو جديد في المجموعة، وجب عليه معرفة الهيكل والتنظيم الذي تسير وفقه.

– ماهر، مهمتك سهلة، ولا تتطلب الكثير من الجهد، فقط ترتيب الكلمات وتركيبها مع بضع الصور، التي تقدم إليك، ووضعها ضمن إطار محدد، ونشرها

على أكبر نطاق ممكن، لكي تصل إلى أكبر عدد ممكن من الأشخاص خارج الحصن... حدثه الأصلع وهو ينظر إليه بتركيز..

– ما نوع الصور التي تعمل عليها؟

– كما قلت لك سابقا، الحرب تحولت إلى حرب نفسية، أي نركز على نقاط ضعفهم..

– الأكيد، أن نقاط ضعفهم هي السهرات والمجون، وهو الوتر الذي تريدون الضرب عليه.

– نعم، بالتأكيد، والأكيد، أنه سوف يكون لها أثر كبير على المستوى الشعبي وحتى خارج الحصن، وسوف نشهد الكثير من الاستقالات في الساعات القادمة.

– ما استنتجه، أنك من البداية كنت تخطط لكل هذا، وعملك رفقة الزعيم، والتقرب إليه كان من أجل الوقوف معه على أكبر عدد ممكن من الممارسات غير الأخلاقية، التي سوف تستعملها ضدهم اليوم.

– بالضبط، هذا ما كنت أسعى إليه منذ البداية، والآن أصبح لدي كم هائل منها، وعن الكثير من المسؤولين الكبار، من مختلف المجالات من الحصن وحتى من خارجه، وسوف تكون الضربة قاضية وقاصمة للعديد مهم، حين يجدون أنفسهم متورطين في قضايا تمس الشرف وحتى الخيانة.. لا أتحدث عن خيانة

الفراش، لكن خيانة الحصن، وأهله، وهذا له ثمن غال جدا، حين توضع موازين العدل والقانون، بعدما تنتهي هذه المرحلة.

– متى تبدأ هذه العملية..

– غدا، سوف أرسل إليك بعض الصور.. حاول أن تلقى لها تعليقات مختلفة، على أن تنزلها في مختلف الروابط، التي سوف نوافيك بها، ولك الحرية الكاملة في كيفية التعامل معها، وعرضها أينما شئت، المهم في كل هذا، هو أن توصلها إلى أكبر شريحة من الناس، والقدرة على الولوج إليها، عبر هذه الروابط، مع الاحتفاظ بمصدر نشرها، ولا تترك لها آثارا، لكي لا يصل أحد إلى تتبع هذا المصدر.

****

انفجرت شبكات التواصل الاجتماعي بالزائرين، وكذا الكثير من المواقع، تناقل خلالها أهل الحصن بعض الصور والفيديوهات، التي لم تكن في المتناول، خاصة أنها تتعلق بالكثير من الشخصيات، والوجوه المعروفة، التي ظلت تتغنى بحب الوطن والحرية، والخوف على سيادة الحصن من تلاهف الكثير عليه من خارج أسواره، والدعوة إلى ضرورة الحرص، وعدم الوقوع في فخ هؤلاء الذين يكيدون كيدا عظيما لهذا الحصن، الذي بقي في مأمن منذ مدة طويلة.. انتشرت هذه الصور والفيديوهات كالحريق في الهشيم، وولج إليها الكثير من الأشخاص، من مختلف الأعمار، ولقيت أكبر عدد من التعليقات الساخرة،

والشماتة خاصة، لأنها كشفت المستور، وما كان يطبخ في الخفاء، من طرف ما أطلق عليهم خونة الوطن والأمانة، وعريت عوراتهم أمام الصديق والعدو.. ضربة قسمت ظهورهم، على الأقل في الفترة الحالية، خاصة أن مشروعهم كان يسير بوتيرة سريعة، وانتقل إلى السرعة القصوى في السنوات الأخيرة.

في ظل هذه الظروف، وهذا اليوم السعيد، الذي عاشه أهل الحصن، الذي عبر عنه من طرف الكثير منهم، على أنه انتصار وبداية العد العكسي، لسقوط شرذمة قليلة، تمارس كل فنون الفساد في الخفاء، وتدوس على كل القوانين، سواء الوضعية منها أم الطبيعية، وتجر هذا الحصن إلى سراديب مظلمة عن قصد، لأن المتحكم في القيادة ليس من أهله، ولا يهمّه الاستقرار والأمان فيه، بقدر ما تهمه الفوضى والتشقق داخل القصر، من أجل تحقيق مزايا أخرى، حين يشتغل أهل الحصن في إعادة الهدوء إليه بكل الطرق، حتى ولو كان على جثثهم، ويسقى من دمائهم، تكون حينها الفرصة مواتية لهم، من أجل إعادة ترتيب أوراقهم في هذا الحصن، ووضع لبنات أخرى تكون صلبة، وإعادة وضع من يواليهم ويساعدهم على تمرير سياستهم الهدامة في الأماكن الحساسة، التي تخدم مصالحهم ومصالح الحصون الأخرى، التي أصبحت اليوم، تتطلع إلى هذا الحصن، الذي أسس بنيانه على أرضية صلبة، ورفعت أسواره بأيد شريفة قوية، سقيت من دماء وطنيين، كانوا بالأمس حماة له، ولا تزال اليوم هيبتهم تلامس الأذهان والقلوب، وما زال طيفهم يزور زوايا هذا الحصن، في كل حين ولحظة،

لهذا أصبح التكالب عليه مثل تكالب الذئاب على الغنم في الغابة، تنتظر الفرصة المواتية من أجل الانقضاض على أضعفها، وكذا على من يتأخر في ملاحقة القطيع.. هكذا، أصبحت حال الحصن منذ سنوات، بالرغم من كون أغلب مفاتيح أبوابه عند الغرباء، إلا أنهم لم يكتفوا، بل أرادوا أكثر من هذا، وهو تغيير أبوابه ومفاتيحه، لكي لا يستطيع أهل الحصن الولوج إلى غرفه، غير أن ما عرض اليوم في شبكات التواصل الاجتماعي، كان بمثابة فرملة للمخطط الذي كان يحاك في الظلام، وتبعثرت العديد من أوراقهم، خاصة أنها مست مباشرة بعض قوادهم. لهذا، كان من الصعب عليهم المضي في تطبيق البرنامج، وأرغمهم على التأخر خطوة من أجل التفكير في الوضع الراهن، ووضع خطة جديدة، تخاط على مقاس ما يحدث في الوقت الراهن، وهو ما اعتبره بعضهم تأخرا، سوف تكون عواقبه وخيمة على مشروع السيطرة على الحصن، بل زاد الخوف أكثر مما سبق في اندثار كل المجهودات التي قدموها من أجل إنجاح هذا المخطط، الذي اتضح أنه مشروع دنيء، يراد به تهديم كل معايير الهوية في هذا الحصن، الذي بقي صامدا رغم كل الضربات القوية، التي كانت تهد دعائمه، وكذا أساسه، الذي بني على أرض طيبة، من الصعب العبث بها، أو تحويلها إلى أرض خبيثة مهما حدث.

****

سمع صراخا طويلا داخل مكتب الزعيم، وهو يرمي بكل ما أوتي من قوة، كل ما يجده أمامه، من أثاث مكتبي أو صور معلقة على جدران مكتبة الفضفاض، أوقع كل شيء على الأرض، ولم تسلم حتى راية الحصن، التي رمى بها بعيدا عند باب الدخول.. صراخ لم يسمع مثله من قبل، وشتم متواصل، وكلمات بذيئة من كل الأنواع، وباللغتين العربية وأكثرها باللغة الفرنسية، التي كان يجديها جيدا. لم يطلب شيئا كالعادة، وبقي داخل مكتبه طوال النهار، يرد على الكثير من المكالمات التي تصله دون انقطاع، وفي الغالب، يبقى صامتا لا يتكلم، يسمع فقط، كأنه ابتلع لسانه، من أثر الصدمة التي يمر بها، وحين تنتهي المكالمة، ويعيد السماعة إلى مكانها، يرن الهاتف مرة أخرى، فيرفع السماعة، ولا يتكلم كالعادة، وبقي على هذه الحال اليوم كله، وفترة من الليل. وحين تجاوزت عقارب الساعة نصف الليل بقليل، خرج من مكتبه، فوجد كل الخدم في البهو، لم يتحرك منهم أحد، ينظرون إليه، وأعينهم تفيض من الخوف، لم يأمرهم بالانصراف كالعادة، ولا يمكنهم الخروج من القصر دون إذنه، نظر إليهم نظرة تعال، وهو يتمتم، لم يسمع ما يقوله، ثم رجع إلى مكتبه، بعدما طلب من أحد خدامه، وهو الأقرب إليه، أن يتبعه إلى المكتب.

دخل الخادم مهرولا إليه، فطلب منه أن يغلق الباب خلفه، أما هو، فقد دخل إلى الغرفة التي كانت تجاور مكتبه، ثم عاد بعدما لبس بيجامة نوم خفيفة، مفتوحة الأزرار على صدره، ظهرت من خلالها شعيرات كثيفة غلب عليها اللون

الأبيض، لون مشيب واضح للعيان، تتخللها قلادة صغيرة تتوسط صدره، ثم جلس على الكرسي الأقرب إلى الخادم، وأمر أن يتقدم إليه، ويقف قبالته.

– منذ متى وأنت تشتغل في القصر؟

– منذ خمس سنوات، سيدي.

– من قام بتوظيفك في القصر، وكيف تحصلت على منصب خادم في القصر؟

– في الحقيقة، أنا أتيت إلى القصر على أساس القيام بمهنة سائق، غير أنني لم أستطع تجاوز امتحان السياقة وفق الشروط الموضوعة هنا في القصر، وتصادف وجودي هنا مع خروج أحد الخدم إلى التقاعد، فوظفت مباشرة في منصبه كخادم، وفي نفس الوقت، أتدرب في ساعة الفراغ للحصول على منصب سائق وفق الشروط التي يقرها العمل في هذا المنصب.

– ماذا اشتغلت قبل أن توظف هنا في القصر، وما هو مستواك الدراسي؟

– اشتغلت في عدة مناصب، أغلبها في مؤسسات غير رسمية أو حكومية، كعون أمن أو عون إداري، لكوني أتقن اللغة العربية، والفرنسية كذلك، لي مستوى دراسي مقبول، مقارنة بالوظائف التي كنت أشتغل بها.

– لماذا فصلت من تلك المؤسسات؟ هل هناك مبرر لهذا؟

– لا، أبدا، لم أفصل سيدي، أغلب المؤسسات التي اشتغلت بها، توقفت آليا، بين عشية وضحاها، ومن دون سابق إنذار، يقال في الغالب للعمال إن السبب هو السوء التسيير، أو لمصادرتها من طرف شركات أخرى أكبر منها، وحين

تقوم هذه الشركة مقام القديمة، يفصل كل من كان يشتغل في المؤسسة القديمة، وكنت واحدا منهم، حدث معي مرتين، ووجدت نفسي بعدها بطالا.

– كم عمرك؟ وماذا عن حالتك العائلية؟

– عمري 35 سنة، متزوج منذ فترة قصيرة، دون أولاد.

– كيف تحصلت على العمل هنا في القصر؟

– لي قريب هو ابن عم، أوصلني إلى شخص كان يشتغل هنا، لم أره منذ فترة، التقيت به رفقة ابن العم، وعرض علي الوظيفة هنا، كما قلت لك، سائقا، وحين لم أتمكن منها، أبقاني هنا خادما لكم.

– ما اسم الشخص الذي وظفك هنا؟

– لا أذكره، لكنني احتفظت ببعض ملامحه فقط، وهو كهل، ربما تجاوز الأربعين، يتقن فن الحديث، ويظهر عليه أنه متمكن، أصلع و...

ما إن سمع الزعيم كلمة أصلع، حتى انتفض من فوق كرسيه، وهو يضرب جبينه بقوة، ويشتم بكلام بذيء سمعه حتى من كان خارج المكتب، أما الخادم، فابتعد قليلا إلى الخلف، من هول ما سمعه من كلام، وبقي ينظر إلى الزعيم بعينين جاحظتين، فلم يسبق له أن رآه في هذه الحالة، وفي الحقيقة، لم يقترب إليه بهذه المسافة التي تفصلهما اليوم... بقي الزعيم يردد: ابن العاهرة، ابن الكلبة اللعينة، على مسامع الخادم، يذهب ويأتي خلف مكتبه، ويضرب بيديه على

المكتب بالقوة.. ثم أمره بالانصراف، وألا يخرج من القصر حتى يطلبه مرة ثانية، هو وجميع الخدم، سواء الرجال أم النساء منهم...

اقترب من الهاتف، الذي كان ملقى على الأرض، بعدما رماه كغيره من الأشياء التي كانت موضوعة فوق مكتبه، ثم شكل رقما سريعا..

– ألو.. تعال فورا دون تأخر.

تحرك مسرعا إلى الغرفة، خرج بعد ربع ساعة تقريبا، وقد لبس الزي الرسمي، يظهر عليه نوع من الثقة والنشاط، في حركاته السريعة، كان يضع يديه على خصره، وينظر عبر النافذة، التي تطل على الساحة الكبيرة، والباب الرئيس للقصر، ثم نادى الخادم بأعلى صوته.. الخادم الذي كان يستجوبه استجوابا غير رسمي وعشوائيا، أفضى به إلى طلب مدير الأمن والاستخبارات في هذا الوقت المتأخر.

بعد نصف ساعة من المكالمة التي أجراها مع مدير الاستخبارات، رأى عبر النافذة السيارة التي تقل المدير، انتفض بحركة سريعة من فوق كرسيه، ليتأكد من وصوله، فلمحه المدير من تحت ينظر إليه، فأشار إليه بالصعود. خطا مدير الاستخبارات السلالم بخطوات مفتوحة وطويلة، كاد أن يسقط من خلالها، حتى وقف عند باب الزعيم. وما إن وضع يده على مقبض الباب، حتى فتح أمامه، من طرف الزعيم نفسه، وهي المرة الأولى التي يحدث فيها أن يفتح الزعيم الباب على أحد بنفسه. أدرك حينها المدير أن الأمر جلل، وما إن وطأت قدماه

داخل المكتب، حتى وقعت عيناه على خادم من الخدم، يقف بجانب المكتب، فزاد تعجبه، فكيف يفتح الزعيم الباب على من يطلبهم، والخادم متسمر مكانه.. أشار إليه الزعيم بالجلوس، غير أن عينيه بقيتا معلقتين بالخادم، الذي ظهرت عليه ملامح الاستغراب والخوف. وضع القبعة الرسمية فوق المكتب، وحول عينيه إلى الزعيم.

– بادره الزعيم بالحديث: كيف تعلق على ما نزل على شبكات التواصل الاجتماعي اليوم، والفضائح التي هزت الحصن، فقد كشفت عوراتنا، ووجدنا أنفسنا أضحوكة للصديق قبل العدو، إلى حد الساعة، لم أنم من الصدمة، التي لزمتني، بعد أول مكالمة وصلتني، وأي مكالمة؟ لقد وصلتني من خارج الحصن، أي إن صدى هذه الصور والفيديوهات كان له الأثر الكبير، حتى تعدت الحدود.. والغريب أننا إلى حد الساعة لم نتمكن من تتبع مصدرها، ولا من قام بها.. وكيف ومتى.. وكلما تمكنا من توقيفها أو حذفها من موقع ظهرت في موقع آخر، ما يزيد الطينة بلة، أن تداولها أصبح في وسائل الإعلام حتى ولو بتحفظ.

–المؤكد، سيدي، أننا سوف نصل إلى من وضعها وإلى مصدرها..

... لم يكد يكمل كلامه، حتى انتفض الزعيم، وظهرت شرارة الغضب في ملامحه، وهو يضرب المكتب بكل قوة، حتى وقف المدير من كرسيه، وهو ينظر إلى الزعيم.

– توقف عن مراوغتي، توقف عن تبرير ما لا يبرر، لو استطعتم توقيف من قام بالعمليتين الأوليين، ما وصلنا إلى هذا، وأنت تدرك تماما ما أقول، ضيعتم الكثير من الوقت، بالجري وراء خيوط دخان تتلاشى في السماء، ولم تقدموا إلي، إلى حد الساعة، أدلة أو حقائق واقعية، يمكن أن أقدمها إلى الكبار، على الأقل من أجل ربح بعض الوقت، قبل أن يعصف بنا، وأنت تعلم هذا أكثر من غيرك..

– ما أردت قوله، أن ما شاهدناه اليوم، من صور وفيديوهات أخذت هنا في القصر، أي إن الجاني يمكن أن يكون هنا.

وقبل أن يكمل حديثه، صفق له الزعيم تصفيق استهزاء.

– اااااوه، شكرا أيها العبقري، وجدت ما لا يمكن الوصول إليه، أنا أعرف هذا، وهذا ما استدعيتك من أجله.

ورمى صورة أمام المدير، حتى سقطت فوق الأرض. التقطها مدير الاستخبارات، وهو يتأملها بكل تمعن، أليس هذا...

– نعم، هو الخادم الذي كان يوزع عليكم الشراب في قصري، الخادم الذي كنتم كلما ثملتم، التقط لكم صور مؤخراتكم العارية، وأنتم تتدحرجون عبر سلالم القصر إلى سياراتكم.. كيف يمكن له أن يخطط لهذا دون أن ينتبه إليه أحد، وأنتم أصحاب المهمات الصعبة والقذرة، وتقرؤون الشخص من أول نظرة، أليس هذا ما كنتم تزعمون؟

– أعتذر، سيدي، لكننا لا يمكن أن نحقق في أشخاص وظفوا مباشرة في القصر، وإلا اعتبر هذا تقليلا من شأنكم، ولا يمكن أن يكون خطأنا نحن..

– من كان يوظف يا مدير الاستخبارات هو الأصلع الذي أمامك، والخادم الذي يقف بين يديك الآن، هو جندي من جنده..

– انتفض الخادم.. لا، لا، سيدي، أنا فقط، أبحث عن عمل، ولا دخل لي بكل هذا.

– نظر إليه الزعيم نظرة ثاقبة... نعم، سوف نرى هذا عما قريب، ثم أمره بالانصراف.

بقي مدير الاستخبارات يعالج تلك الصورة التي أمامه، وهو يحرك رأسه استغرابا، وفي نفس الوقت، اعترافا لهذا الأصلع، الذي أوقع في شراكه شلة كبيرة ممن يعتقدون، أنهم أصحاب القرار في هذا الحصن، وتلاعب بمؤخراتهم عبر صور واضحة، لا يخطئها حتى من هو أعمى.. والسؤال الذي بقي معلقا في الأذهان: كيف وصل إلى تصوير الزعيم وهو في حضن فتاتين من خارج الحصن؟ شقراوين نحيفتين، تمارسان الجنس معه بشبقية كبيرة، تسكبان النبيذ فوق بطنه، ثم تتتبعان قطراته بأناملهما وبشفاههما، في صور صادمة، قد ينتحر الزعيم بعدها.

أدخل مدير الاستخبارات الصورة في جيبه، وطلب من الزعيم الانصراف، غير أن الزعيم أمره بالجلوس، وانتظاره هنا، وخرج من المكتب ثم عاد بعد فترة زمنية

قصيرة، وهو يحمل ملفات عديدة بين يديه، رماها أمام المدير، وطلب منه تصفحها بدقة، كل على حدة، فقد تحمل بين طياتها من شارك في هذه العملية الرخيصة، على حد قوله.

حمل مدير الاستخبارات الملفات بين ذراعية ثم انصرف، أما الزعيم، فرمى بجسده المثقل على الأريكة الضخمة، غاص في التفكير.. حتى أيقظته مكالمة هاتفية، قبيل طلوع الشمس بقليل، فنهض مهرولا إليها.. مد يده إلى الهاتف، ثم سقط على الكرسي القريب إليه، كمن أغمي عليه، وسقطت السماعة من يده.

****

لقد قمت بعمل احترافي، أعترف لك بالمهنية العالية، والتحكم في التكنولوجيا الحديثة. حقيقة، لقد ضربت ضربة قوية، أسقطت الكثير من الرؤوس الثقيلة في الحصن، سقطة قوية للعديد منهم، لن يقوموا من بعدها أبدا، بداية من الزعيم، الذي حول إلى مكان مجهول، لا يدرى أين رمي به بعدما ظهر بجسده العاري وهو يمارس عقده الجنسية مع غريبات من خارج الحصن..

ردد الأصلع على الصحفي ماهر، هذا الكلام وهو يشده من كتفه.

– لا، لا.. العمل كله لك، أنت من صور تلك الصور الفاضحة، أنا فقط قمت بتوزيعها على أهل الحصن ليعرفوا، أصحاب القرار عندهم من أي طينة هم، لا أكثر.

– العمل هو عمل مشترك بين كل أعضاء الفريق، ولا يمكن أن يتحقق هذا بمجهود فرد واحد، مهما كانت قيمته كشخص، العمل الجماعي، يجب أن تقصى منه كل الرتب، يجب أن يتساوى في كل الأفراد، ولا فضل لهذا على آخر، يجب أن يكون العمل متمحورا على الخدمة العامة، وليس على النجاحات الشخصية.. حقيقة الاجتهاد تختلف من شخص إلى آخر. وهذا، لا يمكن تجازوه، لكن في الفترة الحالية، الأهم هو كيفية إسقاط هذه الشلة، التي كانت سببا مباشرا في الكثير من العراقيل، أمام تطور الحصن. والأكثر من هذا، أراد بعضهم أن يبيع مفاتيحه إلى الغرباء بأبخس الأثمان، أو من أجل امتيازات شخصية، دون مراعاة ماضي أو مستقبل الحصن وأهله. وهذا، هو الخيانة العظمى، التي يجب محاسبة كل من تسبب فيها دون استثناء.

– لديّ فضول في شيء، أردت أن أعرفه منك مباشرة..

– أكيد، تفضل.

– أيمكن أن أعرف كيف استطعت الولوج إلى عالمهم القذر، وأن توقعهم في فخ لا يمكن أن يتخلصوا منه أبدا، مهما كانت سلطتهم أو نفوذهم؟

– الأمر بسيط جدا، لا يمكن أن تعرف أسرار البيوت، إلا عن طريق أهلها، سواء ممن لا يكتمون السر، أم عن طريق من يبيعونه تحت ظرف من الظروف.. وهنا، دخلنا نحن في الخط، وهو ما عملنا عليه منذ البداية، هو البحث عن ثغرة من الثغرات، التي يمكن أن توصلنا إلى هذا الهدف، دون أن يشعر بنا أحد،

وهو ما كان فعلا، لا أقول هو ضرب حظ، لكن هو اجتهاد من أجل تحقيق هدف أسمى.

– أفهم أن لديكم عميلا داخل القصر، ساعدكم في هذا العمل، بطريقة أو بأخرى، ومن أجل هدف معين، ربما يكون انتقاما، أو عودة إلى الصواب، بعد الفساد الذي عاشه معهم، أو لحاجة في نفسه..

– نعم، أصبت، من ساعدنا على فك شيفرة الفساد في القصر، كان يسعى إلى حفظ ما تبقى له من الشرف، تستطيع أن تعتبرها توبة، أو بمثابة غسل اليدين اللتين تلطختا منذ فترة طويلة.. والأمر سيان، مادام فيه مصلحة للعامة، ولأهل الحصن. بالنسبة إلي، أعتبره شجاعة من شخص عاد ضميره إلى الاشتغال، بعدما تعطل وران على قلبه، جراء النفوذ والسلطة والامتيازات.

– إذن، صاحبكم في خطر..

– نعم، لقد درسنا كل الاحتمالات الواردة، ونحن ندرك تمام الإدراك أن البحث داخل القصر بدأ مباشرة بعد عرض هذه الصور، والهزة التي خلفتها من بعد، ونعرف كذلك أنهم توصلوا إلى معرفة أنني ضالع في هذا الأمر.. لذا، سوف يحاصر كل من في القصر، وسوف يتعرض الكثير من الخدم خاصة، للتهديد والتحقيق، وربما التعذيب، إذا تطلب الأمر. فالطريقة معروفة عند مثل هذه العصابة، التي تستخدم كل الطرق المشروعة وغير المشروعة، من أجل الوصول،

ولو إلى حرف واحد، قد يوصلهم إلى معرفة من خرب مشروعهم الذي عملوا عليه منذ مدة.

– بما أنكم حسبتم لكل صغيرة وكبيرة، دعنا ننتقل إلى المرحلة الثانية، من الضربات الموجعة التي من شأنها هدم القصر على رؤوس من يحتمون به، من أجل التخطيط لمشاريع الفساد.

****

عوض الزعيم بزعيم آخر.. شخص أقل سنا، تظهر على ملامحه الشدة والقسوة، التي زادت حدتها مباشرة بعد جلوسه على كرسي الزعيم، رسم مخططا واضحا مع كل المديرين الخاصين، وسطر برنامجا يقوم على ضرورة الاجتماع كل يوم، في ساعات متأخرة من الليل، من أجل معرفة مستجدات ما يحدث في الحصن وخارج الحصن، وضرورة ربط الحوادث ببعضها، من أجل الوصول إلى فك هذا اللغز، الذي أصبح يهدد مصالح الكبار، الذين يتحكمون في ما يجري في الحصن. وهي المرة الأولى، التي يحسون فيها، بتهديد صريح لمصالحهم، لذلك، زادت وتيرة التحقيق والتحري، وكانت البداية بالخدم داخل القصر.. أشرف على هذه التحقيقات مدير الاستخبارات بنفسه، بأمر القائد الذي عوض الزعيم، الذي لن يظهر عليه أثر منذ المكالمة الصباحية التي تلقاها من مجهول.

أسفرت الاجتماعات الدورية، التي كانت تعقد كل يوم في ساعات متأخرة من الليل، عن استحالة أن تصل تلك الصور إلى من نشرها، دون أن يكون هناك عميل متواطئ معه من داخل القصر.. لذا، أصبح كل من يعمل في القصر مشتبها فيه، إلى أن تظهر الحقيقة أو يظهر الجاني.

وسيق الجميع إلى التحقيق، الرجال والنساء، على حد سواء، ومورست عليهم نفس الضغوط، من التهديد والوعيد، والفصل، بل حتى التصفية الجسدية، في حالة إثبات التهمة على أحد منهم.. أمر قائد القصر الجديد، بعدم خروج كل من يحقق معه خارج أسوار القصر، حتى تنتهي مهلة التحقيق. لذا، كان كل الخدم يشتغلون نهارا، بشكل عادي كسائر الأيام الماضية، ويساقون في ساعات متأخرة إلى قاعة التحقيق، وتطرح عليهم أسئلة روتينية، تكون في الغالب مستفزة، تتشابه في مضمونها، مع تغيير طريقة طرحها، كمن يريد الإيقاع بأحدهم، وإلصاق التهمة به، على الأقل من أجل تقديمه ككبش فداء، إلى القائد الجديد، الذي بدوره يقدمه إلى كبار الجماعة، كدليل على أن التحقيقات الدورية والعمل الدؤوب الذي قام به منذ توليه منصب القيادة، أسفر عن نتائج إيجابية، وهي الوصول إلى معرفة من كان يساعد المجرم، على حد تعبيرهم، في الولوج إلى العالم الخاص، للقواد وكبار المسؤولين، في القصر وخارجه، وسبب لهم حرجا كبيرا، أسقط الكثير منهم، وكان أولهم الزعيم، الذي لم يكن يظن يوما

أن الليالي الخوالي رفقة العشيقات والنبيذ، سوف تكون سببا في عزله والقذف به إلى المجهول، في انتظار التحقيق معه هو كذلك.

بعد كل هذه التحقيقات، التي استمرت سبعة أيام وثماني ليال، ظهر أن أغلب الخدم لم تكن لهم علاقة بما حدث داخل القصر، رغم كل الطرق التي استعملها مدير المخابرات، ووقف عليها هو بنفسه.. نتيجة لن ترضي القائد الجديد، الذي كان متأكدا، وواثق من كونه سوف يصل حتما إلى الفاعل، عن طريق من كان يساعده من داخل القصر.. لذا، بقي رئيس المخابرات يتردد في تقديم نتائج التحقيق إلى قائده الجديد، خوفا من رد فعله، لأنه يعرف حق المعرفة الزعماء والقواد.. فالنتيجة الإيجابية هي المهمة في نظرهم، حتى ولو كانت من صنع الخيال، أو مصطنعة في حق شخص ضعيف، لا حول له ولا قوة، ولا يمكن أن ينفي التهمة عنه تحت التهديد والوعيد. والتلفيق في نظرهم أدلة مادية، يقدمونها لكبارهم، من أجل الرضا عنهم لا غير.. لذا، كان واجبا عليه أن يبحث عن طريقة أخرى لإرضائه، حتى ولو كانت بتلفيق التهمة لشخص من داخل القصر.. لم يفكر طويلا في الموضوع، فقد كان يخفي الورقة الأخيرة، من أجل ربح هذا التحقيق، وربح جانب القائد الجديد.. لذا، استدعى الخادم الذي وجده مع الزعيم السابق، الذي تتوفر فيه كل الشروط ككبش فداء، ولن ينتبه أحد إلى براءته، مادام الأصلع هو من استقدمه إلى القصر ليشتغل معه.

طرق مدير الاستخبارات باب القائد، فأمره بالدخول.

وقبل أن يغلق الباب، بادره بالقول:

– أتمنى أن تقدم لي نتيجة إيجابية، بعد كل التحقيقات التي قمت بها رفقة جماعتك؟ فقد قدمت لكم كل الوسائل المادية، من أجل التعمق أكثر في تحقيقاتكم.. لذا، أتمنى أنكم لا تخيبون ظني.. تفضل، هات ما عندك.

– نعم، سيدي، بعد تحقيقاتنا مع أغلب الخدم، وكل من يشتغل في القصر، ظهر هناك مشتبه فيه، وهو شاب تجاوز العقد الثالث بخمس سنوات...

– هل أقر بفعلته، أم هو مجرد تخمين من طرفكم؟ أنا أعرف كيف تسير الأمور في بعض القضايا التي تستعصي عليكم في مصلحة المخابرات.

– بعد المعلومات التي جمعناها عنه، ظهر أن الأصلع هو من وظفه في القصر، وأرى أن هذا دليل كاف...

– ربما، بقي فقط أن يعترف بهذا، لكي نثبت ضلوعه في هذه الجرائم، ونغلق ملف هذه القضية نهائيا..

– بعد الاستجواب المبدئي له، لا يزال ينكر، وهذا أمر طبيعي، في مثل هذه الحالات، فلا يمكن للمجرم أن يعترف بجريمته وهو يبتسم، فقط، لو ضغطنا عليه بعض الشيء، ربما نصل إلى نتيجة معه..

– نتيجة، أم تلفيق القضية له؟ يجب أن تكون واضحا معي، يا مدير المخابرات؟

– لا، لا.. لا يمكن أن نحمل شخصا شيئا لم يقم به، ليس من عاداتنا، لكن، أنا متأكد جدا من كونه هو المتهم الرئيسي في القضية.

– موافق، أكمل التحقيق معه، وأرجو، أنك في المرة القادمة، تقدم لي نتيجة نهائية، وليس مجرد تخمين في القضية..

– نعم، سيدي، هلا أذنت لي بالانصراف؟

– طبعا، تفضل..

خرج مدير المخابرات من عند القائد الجديد، وهو يحمل ملف الخادم، وهو المتهم الرئيسي، إلى حد الساعة، وهو يحدث نفسه بأن القضية سوف تغلق بعد يومين آخرين، لا أكثر، وكأنه أصر على تقديم هذا الخادم ككبش فداء، سواء أقر بفعلته، أم هو مجرد خادم يسترزق من وظيفته في القصر. وهو ما كان.. فبعد يومين من اللقاء، الذي كان بين مدير المخابرات والقائد الجديد في القصر، دخل عليه في مكتبه، وهو يزف إليه خبر كون الخادم اعترف بكل التهم، وأنه متورط في كل ما حدث داخل القصر.. بشارة، أثلجت صدر القائد، الذي مد يديه إلى الهاتف أمامه، وهو يبتسم مع مدير المخابرات.. وزف الخبر هو كذلك، على الكبار، كما يسميهم.. وبعد مكالمة قصيرة، قام بها، وقف وقفة استعداد، أنهاها بقوله:

– نعم، سيدي، يشرفنا حضوركم.. سوف نكون في انتظاركم. وأغلق الهاتف ثم حول نظره إلى مدير المخابرات.

– أشكرك على حرصك من أجل فك لغز هذه القضية، الأكيد أنها بداية، لكننا في الطريق الصحيح، وأنت ترى أن الأمور تحركت بعد فصل الزعيم

القديم، الذي كان يهمه فقط مضاجعة أكبر عدد من النساء، وشرب الخمور من كل الأنواع، حتى وقع في فخ.. وأذكر جيدا، أنني التقيت به في اجتماع خارج الحصن، قلت له في دعابة، إن لم تقتلك بائعة هوى، سوف يقتلك النبيذ الرخيص.

****

تصدر توقيف المتهم المساعد في نشر الفضائح التي مست كبار المسؤولين، عناوين الصحف.. حمل الأصلع أغلبها، وذهب إلى مقر عمله. نادى على الجميع من أجل اجتماع طارئ، للحديث عن المستجدات، التي كان أبرزها هذه العناوين، التي نشرت صبيحة اليوم، التي تفيد بأن شابا تجاوز العقد الثالث، متهم بنشر قضايا فساد وأخلاق.. كان يشتغل في القصر كخادم. قرأ الأصلع أغلب العناوين بصوت مسموع، وكلما أتم قراءة عنوان، رمى بالجريدة بعيدا.. فظهرت من خلال ذلك نرفزته أمام الجميع.

– الكل يعرف طريقة عمل العصابة، من أجل تشتيت الرأي العام، يقومون دائما بمثل هذه الأمور، وهم يدركون أن أهل الحصن يعرفون هذه الطرق الخبيثة، لكنهم يريدون من خلال نشر مثل هذه الأخبار، إرسال رسائل مباشرة إلى كل من تسول له نفسه، التقرب أكثر من هذه الشلة، التي ترى بأن العمل غير الأخلاقي والفساد، يجب ألا ينشر وتعرفه العامة، كمن يعطي لنفسه حق القيام بهذا في الخفاء، حتى ولو كان يضر بالمصلحة العامة.

– ومن هو الشخص الذي يتحدثون عنه إذا؟ سأله الصحفي ماهر..

– هم يعرفون أنني المتسبب الوحيد في هذه القضايا، منذ البداية، سواء التي كانت عن طريق التصفية الجسدية أم الضرب على وتر الأخلاق، بنشر غسيلهم في القنوات والمواقع الإلكترونية.. لذا، سوف يسعون جاهدين إلى الوصول إلى كل من تحدث معي، حتى ولو كان في مقهى أو في الشارع، وسوف يحاولون الإيقاع بهم، وهم يعرفون تماما أنهم أبرياء، لكنهم لا يبالون بهذا، ولن تهمهم روح تزهق من أجل توقيف الحرب التي شنت عليهم، سواء من طرفنا أم ممن اتخذ طرقا أخرى كقطع علاقتهم بكل الفاسدين من خارج الحصن، عن طريق التصفية. أما في ما يخص هذا الشاب المسكين، فهو ضحية أخرى من ضحايا عصابة لا أكثر ولا أقل.. صحيح، أنا من وظفته في القصر، ومنذ تلك الفترة لم ألتق به، فقد كنت أشاهده عن بعد في القصر، ولم تكن لي به أي علاقة، حتى شاهدته اليوم يتصدر الصحف.

– دعنا نر رد فعل أهل الحصن، في ما يخص هذا الخبر، الذي تصدر أهم الصحف اليوم.. ضغط الصحفي على لوحة حروف أمامه، فانفتحت شاشة عملاقة أمام الجميع، تحول نظرهم إليها سريعا.. وبعد التدقيق في مختلف ما جاء في الكثير من القنوات وكذا المواقع، اتضح أن الجمهور في الحصن انقسم إلى قسمين اثنين، منهم من رحب بهذا العمل الذي اعتبره بعضهم الطريقة الوحيدة للوقوف أمام من تسول له نفسه المساس باستقرار الحصن، عن طريق هذه

الصور والفيديوهات، وذهب بعضهم إلى أنها مفبركة.. وفي المقابل، رأى بعضهم أن الأمر خطير، فحين يوقف من ينشر الفساد، يصفّ بهذه الطريق أو بأخرى. والغريب، أنه تنشر صوره في أكبر المواقع والصحف، وكذا القنوات.. لهذا، فنحن مقبلون على مرحلة حساسة وخطيرة في الحصن. بعد تصفح هذه الآراء من طرف الأصلع وكل الأعضاء، تفرق الجميع دون الحديث في شيء، إلا ماهر الصحفي، طلب من الأصلع أن يحدثه على انفراد.. فطلب منه الأصلع الصعود معه إلى القسم العلوي من المقر. جلس الأصلع على كرسي مقابل الصحفي ماهر..

– تفضل، ماهر، ماذا تريد؟

– لدي فضول.. الصور، التي قدمتها لي، حين كنت أشتغل في القناة، التي طردت بسببها.. هل أنت من قام بتلك العملية في تلك الليلة والتي تلتها؟

– يجب أن تعرف شيئا واحدا، ماهر.. نحن لسنا سفاحين، لكن، نستغل كل ما يساعدنا في تهديم المشروع الخبيث، الذي يحاك في الخفاء ضد أهل الحصن، الذي لو تحقق لكانت تبعاته علينا كبيرة، وسوف لن تقوم لنا قائمة.. الصور التي قدمتها لك، وصلتني من شخص أعرفه كما أوصلتها أنا لك، وتناقشنا كثيرا في الموضوع، لأنني بصراحة لا تعجبني الطريقة التي يعمل بها، وهي الذهاب إلى التصفية مباشرة، لأنها تخلق الفوضى، والفوضى قد تكون نتيجتها وخيمة، لأنك تقف مباشرة أمام عصابة لا ترحم، وتستعمل كل الوسائل، سواء المشروعة

أم غير المشروعة منها، من أجل تحقيق أهدافها.. والدليل اليوم، كما شاهدت.. لفقوا القضية لبريء، لكنه أقنعني بضرورة نشرها، فقط من أجل رفع صدى صوتنا، فيصبح مسموعا عندهم. وصراحة، بعدها ظهرت نتائج إيجابية دعمت قضيتنا.

– صحيح، بعد تدقيقي في الصور، التي أرسلتها إلي، كانت تظهر فوق صدورهم عبارات غير مفهومة، لم أستطع فك شيفرتها، أو تفسيرها، والربط بينها، ربما أنت تعرف معناها..

... ابتسم الأصلع، ضاحكا من قول الصحفي ماهر، ثم وقف قبالة الواجهة التي تطل على القسم السفلي من المقر، وبعد فترة التفت إليه مرة أخرى..

– في الحقيقة، لا تحمل أي معنى، فقط من أجل التضليل، لكي نشتت تفكير كل من يعمل على تتبع أثرنا، فقط هي كتابات عشوائية، تركها من قام بالعملية، وقد أخذت الكثير من وقت المخابرات من أجل فك شيفرتها.

– طريقة ذكية.. بالمناسبة، ما هي الخطوة الثانية، التي نقوم بها في المرة القادمة؟

– سوف نتريث قليلا، ومن بعدها سوف نتحرك ثانية في اتجاه العصابة مباشرة.. وأكيد أن الضربة سوف تكون موجعة هذه المرة، لأننا نحمل الكثير من الأسرار، التي قد توقع برؤوس أخرى بعد عرضها.

بعد هذه الجلسة الخفيفة بين الأصلع والصحفي ماهر، افترقا مباشرة.. اختار ماهر الخروج مباشرة من أجل التجول في الشارع، ولقاء بعض أصدقائه في شغله

القديم، أو مهنة المتاعب كما يقال عنها.. وبينما هو يهم بإشعال سيجارة، حتى سمع صوتا نسويا يناديه.. التفت، فإذا بها الصحفية التي تعمل في جريدة كانت تعاني شح الإشهار والدعم.. حتى اندثرت.

... ماهر، ماهر.. مرحبا. أين كنت كل هذه الفترة؟ ذهبت إلى مقر عملك ولم أجدك؟

أعاد ماهر السيجارة إلى العلبة.. وخطا نحوها بعض الخطوات. سلم عليها، أمسكت بيده.

– اليوم، أدعوك إلى العشاء معي.

– وما المناسبة؟ رد عليها ماهر

– انتقلت إلى جريدة أخرى معروفة، بامتيازات كثيرة، وسوف أعمل في القسم السياسي، ويسرني أن تكون أنت من يقدم لي الأجندة السياسية، لكن، قبل كل هذا، يجب أن تقص علي كل ما حدث معك، وكيف طردت من القناة، بعد تلك السنوات التي قضيتها فيها؟ وهل يعقل أن يستغني عنك، رئيس التحرير ومالك القناة، بهذه السهولة، بعد الذي قدمته لهم وللقناة؟

– أنا لا ألومهما، فقد خيرا بين القناة وباقي العمال، على حساب اسمي فيها، وهذا هو الاختيار الأفضل في رأيي، على كلّ، دعينا من كل هذا، أريد معرفة المطعم الشيك الذي سوف تدعوني إليه الصحفية الجديدة في عالم السياسة القذر، عالم القردة، كما يسميه العارفون به.

– شكرا على التشجيع، أيها الصحفي المحترف. وكبداية، لقد شجعتني كثيرا على الخوض في غمار عالم القردة، الذي وصفته لي.

– لا، بالعكس، أنا الذي يشرفني أن أقدم لك خدماتي سيدتي الجميلة، ومتأكد من كونك سوف تكسرين الكثير من قلوب شيوخ السياسة في الحصن، لأنهم مولعون بالجنس اللطيف من أمثالك، وأنا لا ألومهم، وسوف تأتين بالكثير من السبق الصحفي لجريدتكم...

قالها ماهر وهو يضحك ضحكة مسموعة، أما الصحفية، فضربته على كتفيه بالحقيبة الصغيرة، التي كانت تحملها، ومازحته:

أوه.. بليز، بليز، لا تفعلي.

ضحكا ضحكا مسموعا، وهما يقفان على الجانب الآخر من الطريق، الذي يقابل المطعم الشيك، مطعم مخصص للأكلات الشرقية بكل أنواعها.

أوصلها إلى أمام بيتها، غير أن نظراتهما في هذه الليلة أخذت منحى آخر، وكانت تحمل الكثير من التمني، الذي ترجم في لحظات سكوت بينهما، وكلاهما يأكل ملامح الآخر ببطء.. وفي هدوء هذه الوقت المتأخر من الليل، فقد كان يفكر في حملها معه إلى الغرفة، التي تقبع في الفوضى، التي لم يزرها منذ مدة، من أجل ليلة عشق لا تنتهي إلا على خيوط الفجر، وهي ترتسم على هدوء نسمات الصباح.. أما هي، فقد كانت تفكر في تلك اللحظات، وهي غارقة

فوق صدره، تداعب شعيراته واحدة واحدة، لا تفيق إلا وقد ارتفعت أنفاسها التي تلامس شعاع الشمس، وهي تداعب الأفق، مع صديقها في مهنة المتاعب.

****

اعتبر الكبار ما توصل إليه القائد الجديد في القصر، بمثابة انتصار مبدئي، وأن فك الرقم واحد في كل ما يحدث، سوف يسقط كل الأرقام بعده تباعا، وأن الوصول إلى حل هذه الأزمة قريب جدا. فقط، يتطلب بعض الجهد الإضافي، والسهر على تتبع كل خيوط هذه الحادثة عن قرب، وبتدقيق أكبر، وليس كما كان يحدث مع الزعيم القديم، الذي لم يحرك ساكنا، ولم يكن يتتبع ما عدا الفراش وشرب الخمر لا غير.. لهذا، جهز بعضهم الرحلة إلى القصر، من أجل تكريم القائد الجديد، وترقيته إلى مرتبة زعيم.. حضر الكثير من القواد من داخل الحصن وخارجه، والوجوه المعروفة، وكبار السياسيين، وبعض من الوجوه الإعلامية المعروفة، وكذا بعض الفنانين والممثلين المشاهير، من داخل الحصن وخارجه.. في حفل كبير، وزعت فيه الأشربة من كل نوع، وفتحت أبواب الغرف على مصراعيها، من أجل اللهو والسمر إلى طلوع الفجر.. ليلة، كانت هدية إلى الزعيم الجديد، وكل من ساعده في تحقيق هذا النصر، الذي حققه فقط بعد جلوسه على كرسي القائد بضعة أيام، واعترافا منهم له على الخدمة المبجلة تجاههم، منذ أن كان جنديا عاديا، واليوم يصل إلى كرسي الزعيم، بفضل إخلاصه واجتهاده، وهذا، ما جاء في الكلمة التي ألقاها أحد الكبار، على

مسامع الحاضرين، قبل افتتاح ليلة السمر هذه، التي انتهت وقد قاربت أشعة الشمس أن تلامس تضاريس هذه العالم من اليوم الموالي.

ليلة سمر، التقى فيها الكثير من المعارف القدامى، وفي الغالب، يتم في مثل هذه المنسبات، ربط العلاقات الجديدة، وتجديد القديمة منها، وتبادل الأرقام وبطاقات الزيارة، وهي فرصة كذلك للتقرب أكثر من الكبار، والحرص على التملق لهم، من أجل منصب أو امتياز آخر، وعرض الخدمات عليهم، بالرغم من كونهم لا يحتاجون إلى الخدمة من غيرهم، بل يفرضونها، أو يأمرون بها من يرونه أهلا لها، فيتحول كل من قدموا له عرضا بين عشية وضحاها، بمثابة خادم لهم، لكنه في لباس رسمي فقط، يهانون بكل الطرق، ويقومون بأعمال ضد العرف أو القانون، أو حتى الطبيعة.. لكنهم، يقومون بها وهم مبتسمون، بل مباركون لها، يصل تملق بعضهم إلى درجة التعبد، وتراهم يقفون في استعداد أمام كبارهم، كمن يقف أمام إله من حجر أو صنم يرجو منه النجاة.

بعد يومين من حفل التكريم، قام الزعيم الجديد بتغيير مكتبه بمكتب آخر، لكنه يطل على الساحة الكبيرة للقصر، كما هو شأن المكتب القديم.. حرص على أن يغير كل الأثاث المكتبي بأثاث آخر، لذا، أمر كل الخدم بالعمل على تنظيف المكتب القديم، ووضع كل ما كان يحتوي عليه في الطابق السفلي، ما عدا الملفات والتسجيلات، التي كانت موضوعة في الصندوق السري، أخذها معه إلى مكتبه، ولم يقف عند هذا الحد، بل أمر بالإتيان بتقنيين، من أجل البحث

عن أجهزة تنصت أو كاميرات قد تكون في المكتب القديم، وكذا القيام بمسح في مكتبه الجديد.. وفعلا، وجد بعضها وقد أتلف، والآخر لم يبق ماعدا مكانها شاهدا عليها، فتأكدت نظرية العميل، الذي كان داخل القصر، الذي كان يساعد الأصلع للتجسس على الزعيم، وأن مدير الاستخبارات فعلا وجد المجرم الحقيقي، وليس مجرد تلفيق من أجل غلق الملف نهائيا لإرضائه كما كان يعتقد. كغيره من الزعماء الجدد، الذين يقومون مقام زعيم آخر، فإنه يقوم بدورة كاملة في القصر، من أجل الوقوف على كل صغيرة وكبيرة، خاصة في ظل هذه الظروف.. خصص لهذا يوما كاملا، من أجل تفقد الخدم والجند، ووجه إليهم كلمات تنبع منها شرارة التحذير والتهديد، غير أنها ظهرت في كلمات مسالمة، وهي قدرة الزعماء على إلقاء سحرهم في خطاباتهم، وهم يتبعون حديثهم بابتسامات خبيثة، يظهرون الحب والولاء لأتباعهم، لكنهم يحملون بداخلهم كرها لا ينقطع.

****

بعد كل هذه الضجة، التي حدثت في الأيام الأخيرة، آلت الأمور إلى الهدوء، وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، غير أن وتيرة البحث والتحري، بقيت متواصلة على قدم وساق، رغبة في الوصول إلى رقم آخر، من شأنه فك شيفرة القضيتين السابقتين، وكذا اجتثاث أعداء المشروع، كما كان يردد الزعيم وكل الكبار.. في المقابل، بقي الأصلع يحضر هو وفريقه لضربة أخرى، قد تكون

موجعة، هذه المرة، وقد تنسف كل المشروع، خاصة أنها تصل هذه المرة إلى بعض ممن هم في القمة، أي إلى بعض الكبار، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم في منأى عن كل هذا. ومن أجل هذا، فقد دعا الأصلع إلى اجتماع ليلي، يضم كل الأعضاء، دون استثناء، للوقوف على حيثيات ما كان يحصل في الأيام السابقة، والدعوة كذلك إلى ضرورة الحيطة والحذر، مع ضرورة وضع مخطط دقيق للوضع الراهن، وكذا ما بعد الضربة وما تخلفه من رد فعل، الأكيد، أنه سوف يكون قويا، بالنظر إلى الأسماء التي ضمتها القائمة.

حضر كل الأعضاء، ما عدا الصحفي ماهر، واعتبره الأصلع بمثابة عدم تحمل مسؤولية، ويجب الحديث في الأمر مطوّلا حين يصل، غير أن الوقت كان يمر والاجتماع متوقف، ولا يمكن أن يبدأ إلا بحضور كل الأعضاء، فالعمل هنا بمثابة سلسلة، كل عضو يعتبر حلقه فيها، ونظرا إلى عدم قدوم ماهر، فقد أمر الأصلع بضرورة تغيير موعد الاجتماع إلى ليلة أخرى.. وبعد هذا ظهر نوع من عدم الرضا من بعض الأعضاء، وهذا ما لمحه الأصلع على ملامحهم:

– أعرف أن أغلبكم لا يعرف الصحفي ماهر، وربما يعتقد بعضكم الآخر أن توظيفه هو مخاطرة كبيرة، لكن ما لا يعرفه أغلبكم، أنني كما تحريت عليه، تحريت عليكم كلكم.. إذا، لا أريد أن أسمع منكم تصويبا في طريقة عملي، إلا في المناقشات من أجل تقديم الرأي الصحيح، كما هو معمول به منذ أن تأسست هذه الخلية، لكن مساءلته لمعرفة سبب عدم حضوره، سوف تكون علنا

وأمامكم، لأنني أرى أن من حقكم معرفة كل شيء في عملنا هنا، ولا توجد الأسرار ولا الخصومات الشخصية، عملنا عمل مشترك من أجل هدف مشترك لا غير، يضحي الواحد منا من أجل الجماعة، والجماعة في خدمة الفرد، وهي المعادلة الصحيحة، لتحقيق الهدف.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض، ثم انصرف كل واحد منهم إلى مكانه، وربما اقتنع أغلبهم بحديث الأصلع إليهم، أما هو، فصعد إلى الطابق العلوي، وبقي قرابة نصف ساعة وهو يقلب في أوراقه، التي كان يحملها معه من أجل الاجتماع، ثم انصرف دون أن يحدث أحدا، على غير العادة، فقد كان كلما خرج من مكتبه، أمر أحد الأعضاء بالصعود إلى الطابق العلوي، وتولي مكانه حتى عودته، غير أن غياب ماهر في هذا الوقت بالذات وفي مرحلة حساسة، عكر مزاجه.. وقف في الشارع، يراقب سكونه في هذا الوقت المتأخر من الليل، وكأنه لا يزال يحمل في قلبه أملا في وصول ماهر بعد هذا التأخر. انعطف إليه شخص في آخر الشارع، فنهض وتقدم نحوه، غير أنه ظهر أنه متشرد، يبحث عن مكان يؤويه، بعد سير طول يومه.

بحكم معرفته السابقة له ونشاطه وحيويته، ومواعيده الدقيقة، لا يزال يصدق أنه حدث معه شيء طارئ، ولا يمكن في الظروف العادية أن يتأخر عن موعد عمل هام، بل يعتبر الأهم منذ بداية الحرب مع كل المفسدين، الذين

يتوارثون الكرسي، وحكم الحصن منذ زمان، غير أنه ليس هناك دليل على براءته..

تناولت بعض الصحف ووسائل الإعلام السمعي البصري، خبر عزل أو إقالة الزعيم من منصبه، وتغييره بزعيم آخر، بنوع من السخرية والتهكم، وذهب بعضها إلى أبعد من ذلك، حين تعمدت الحديث والتطرق إلى ماضي هذا الزعيم، الذي غلب عليه الكثير من قضايا الفساد في كل المجالات.. فساد كان ينخر الحصن، وانتشر بسرعة كبيرة، منذ توليه رئاسة القصر، وكان بمثابة فأل شر على أهل الحصن، الذين عانوا الويلات خلال حكمه. في المقابل، هناك من القنوات ما اتجه عكس هذا التيار، وتشبثت ببعض المواقف السليمة، التي قدمها إلى أهل الحصن، وسعت بكل الطرق إلى تلميع صورته، حتى بعد رحيله من منصبه. وبين هذا وذاك، بقي أهل الحصن متخوفين من سياسة الزعيم الجديد، الذي ربما لن يكون أحسن منه، وسوف يكون بمثابة حافظ أمانة من سبقه إلى هذا المنصب، خاصة وقد انتشرت بعض الإشاعات، التي مفادها أنه كان على صلة دائمة مع الزعيم القديم، أي ربما لديهما نفس الرؤى في ما يخص حياة أهل الحصن، وكذا التعامل مع من هم خارج الحصن، أو كما يعرفون بالغرباء، الذين كثرت مؤخرا زياراتهم إلى الحصن، خاصة بعد الحوادث الأخيرة، وظهرت عدة قراءات من العارفين بشؤون ما يحدث. وأكد أغلبهم أنهم يسعون إلى إعادة تثبيت ما تحرك من أسسهم في الحصن، من أجل الحفاظ على

مصالحهم، وتغيير خطتهم من أجل الحفاظ على كل المزايا والامتيازات، أو على الأقل، في المجالات الحيوية، على غرار الهوية وسياسة الاستعمار الحديثة، التي تقوم على سلخ أهل الحصن من ماضيهم، ورسم مستقبل يكون في خدمتهم هم أنفسهم، وليس في خدمة أهل الحصن.

كان الزعيم الجديد محظوظا، مقارنة بالزعيم القديم، ونال الترحيب والرفعة من طرف الكبار، الذين أسندوا إليه كل المهام الأخرى، كعربون ثقة واعتراف له بالوصول إلى رقم من أرقام القضية، التي بقيت عالقة منذ شهور، وبفضله، يمكن الوصول إلى حلها نهائيا، وإعادة ترتيب البيت الذي هدم في الفترة الأخيرة، وتعود مستقبلا المياه إلى مجاريها.

بعد فترة، دعا الزعيم إلى اجتماع لكل الهيئات الرسمية وغير الرسمية.. اجتماع كبير. وحث على حضور كل الأعضاء، فلا مبرر لمن يغيب. وهو ما كان، فقد عقد الاجتماع في القاعة المخصصة للاجتماعات، بعد سويعات فقط، وفتح حديثه إليهم، بمباركة العمل الذي توصل إليه مدير الاستخبارات، وهو نجاح للمؤسسة كلل ولكل القائمين على الحصن، ودعا إلى ضرورة تكثيف المجهودات من أجل التصدي لما هو قادم، فلن تتوقف هذه الحرب بينهم وبين أعدائهم على حد قوله، إلا بانتصار لأحدهما، ولا يمكن أن يكون الانتصار إلا من نصيبهم، مهما كلف الثمن، حتى ولو تطلب الأمر حرق آلاف الجثث والسير فوقها، من أجل إنقاذ هذا المشروع، الذي عمّر طويلا، ولا يمكن بحال

من الأحوال، أن يصبح في خبر كان، من طرف مجموعة أشخاص، قرروا الوقوف الند للند معهم.

لقيت هذه الكلمة ترحيبا كبيرا بين الأعضاء، ونظر بعضهم إلى بعض، وهم يحركون رؤوسهم للزعيم، الذي كان يحول عينيه من شخص إلى آخر، وهم يتجاوبون معه، ثم فتح المجال لهم للحديث.. حديث كان مقتضبا، وظهر عليه كالعادة نوع من الشحناء والضغينة، وهو ما لاحظه الزعيم، الذي قطع الخصام غير المعلن بينهم، بقوله:

– أود لو تكون هذه الحرارة الزائدة بينكم، والغلظة الشديدة، مع من يريدون الخراب لهذا القصر، وليس بينكم، ومن أراد أن يصفي حساباته الهامشية على حساب هدفنا كمجموعة، أنصحه بأن يضع الشارة فوق الطاولة، وكل ما تعلق بمنصبه، وأن ينصرف دون رجعة، وأتمنى ألا تتكرر مثل هذه الأحاديث الجانبية، وهذه الخصومات القديمة، التي تعكس حقا نوعا من عدم المسؤولية، تجاه كل ما يحدث، ولو تكررت سوف يكون لنا كلام آخر.

كلمات، كان وقعها على أعضاء هذا المجلس بمثابة تهديد صريح من الزعيم الجديد، ولم يقف عند هذا الحد، بل أمرهم بالانصراف مباشرة بعد نهاية هذا الاجتماع، على غير العادة، فقد كانوا يتحولون بعد كل اجتماع إلى سهرة للنبيذ الخالص، في وقت مضى، أي في زمن الزعيم القديم، الذي لم يظهر له أثر منذ تلك الفضيحة.

تجاوز الكثير من أعضاء القصر تلك المشاحنات وكأنها ذابت، بعد ذلك التهديد من الزعيم، وتحولوا إلى السرعة القصوى للحاق بمن يريد الدمار لهذا المشروع، واجتهد الكثير منهم في البحث وربط حيثيات كل القضايا، دون ترك أي تفصيل دقيق، وكانت تصل إلى الزعيم تقارير يومية، كان يحولها هو كذلك إلى الكبار، لكن رغم كل هذا كانت عبارة عن ذكر وإعادة ذكر ما حدث، مع ربط الأحداث في ما بينها، دون الوصول إلى شيء جديد في القضيتين السابقتين، غير أن الزعيم كان راضيا عن كل الجهود والنية الحسنة لكل المؤسسات، في السير قدما والتعاون من أجل حل هذا اللغز.

****

نهض على صوت المنبه، وهو يمزق سكون الصباح، التفت إليه بعين واحدة، فرأى الساعة قد قاربت السابعة صباحا، رمى الغطاء من فوقه، وهو يتمتم بكلام مسموع كمن يلعن نفسه، ثم مد يده إلى أقرب لباس إليه، لكي يستر ما تبقى من جسمه العاري.. التفت إلى جانبه، فوجد المكان خاليا، ماعدا لباسا داخليا نسويا، لم يميّز ما هو، فلا يكاد يستطيع فتح عينيه لطول السهر.. نادى بصوت مرتفع، غير أنه لا مجيب، ربما خرجت في وقت مبكر إلى شغلها الجديد، كحال من يتحصل على منصب جديد، فهو يحرص في أيامه الأولى على الالتزام من أجل حفظ صورته في ما بعد، لم يستطع النهوض فجلس على حافة سريره، ووضع يده على رأسه، فعادت صور هذه الليلة، التي قضاها في

حضن صحفية في القسم السياسي، حلم يقظة ممزوج بأصوات السيارات في الشارع، غير أنه لم يستطع مقاومة تلك الآهات، التي كانت تطرق باب أذنه، لساعات طويلة. نظر إلى جسمه، الذي لا يزال يرتعش، وقد ظهرت عليه بعض الندوب في كل مكان، تذكر غرقه في حوض حدوده خصر امرأة، كانت تتمايل أمامه، وينابيع شهوتها، تشفي غليل شوقه إليها، تذكر تلك الأنفاس الحارة التي تلفح وجهه وهو بين وعي ولا وعي، نظر إلى كفيه، وقد كانتا تمتلئان بأشياء ناعمة الملمس طول الليل، وكلما زاد لهيبها انطفأت بعرق ساخن، كانت تنزل زخات زخات على حدود جسد، قررت كل شعيراته التمرد في هذه الليلة، فأعلن هو ملاحقتها في كل مكان.

****

تعدى الغياب بعض الساعات، ولم يكن منتظرا، وزاد التوتر، وظهر نوع من الشك بين الأعضاء.. شك لم يكن موحدا، فمنهم من اعتقد أن الصحفي ماهر هو مجرد شخص مدسوس بينهم، أتى من أجل معرفة كل تفاصيل المجموعة من العدد والعدة، والمكان خاصة، وكيفية العمل، وكل المخططات المستقبلية، وحين توصل إلى كل هذا رحل، لذا، وجب التحرك سريعا، وتغيير المكان قبل فوات الأوان، وهو الشك الذي لقي غالبية الرأي من بين الأعضاء، أما على الطرف الآخر، فهو اعتقاد البقية، على غرار الأصلع، أن ماهر الصحفي وقع في كمين، ولا يمكن أن يكون جاسوسا أو مرتزقا يبيع ضميره من

أجل منصب أو سلطان، ودعا إلى ضرورة التريث على الأقل ليوم أو يومين آخرين، وهو الرأي الذي لقي اعتراضا كبيرا، وتعدى الحدود إلى جدال كاد يتحول إلى مشادة بين الأصلع وأحد الأعضاء، الذي أصر على ضرورة الخروج من هذا المكان، قبل أن يذهب كل ما قاموا به منذ سنوات في مهب الريح، من أجل... ابن العاهرة هذا. وهي الكلمة التي كانت بمثابة شرارة بينهما، واعتبرها الأصلع إهانة له شخصيا، ولأول مرة، يخاطبهم من منصب المدبر والمدير في هذا المكان.

– يبدو أن بعضكم نسي من هو، لذا، وجب تذكيركم بأنني أنا هو المدير هنا، ومن أراد أن يعارض أفكاري، يجب أن يفكر مرتين قبل أن يتخذ القرار.

– لكن الأمر يتعلق بسنوات كثيرة قضيناها من أجل الوصول إلى هذه المرحلة المتقدمة في محاربة الفساد.. رد أحد الأعضاء، وهو الأقدم.

– أعرف، لكن ماهر يمكن أن يكون كل شيء إلا خائنا، فهل أنت خائن؟

– نظر من حوله وإلى الأعضاء الذين بقوا يتابعون المحادثة بين الطرفين دون تدخل– أكيد، لا.

– وكيف تثبت لي ذلك؟

– بالسنوات التي قضيتها معك.

– ليست كافية، يمكن أنك تريد أن تحقق أكثر من القضاء على هذه المجموعة، لذا فأنت هنا معنا لفترة أطول.

– وهل حدث أنه هوجمنا أو قبض على أحد منا من قبل؟

– لا..

– إذا، فهذا يدل على خدمتي وإخلاصي لهذه المجموعة، ولو كنت كذلك، كما تلمح اليوم، لكان يختفي كل شهر أو شهرين عضو، دون أن تنتبه إلى أن الأمر مدبر في ظل الكثير من الظروف..

لوحظ على الأصلع نوع من الانهزام، بعد هذا الطرح الدقيق والمنطقي، من أقدم عضو بعده، لذا، انصرف في صمت.

****

فتح عينيه، فوجد نفسه مرميا على أرضية باردة، في غرفة تقريبا مظلمة، ويداه مشدودتان إلى الخلف، وقد سالت بعض قطرات الدم من معصميه، من قوة الشد، لم يعرف ما حدث معه؟ كيف وصل إلى هذا المكان؟ وقد كان في غرفة رفقة الصحفية، يتداولان أطراف الحديث عن مهنة المتاعب، وهما يرتشفان عصيرا باردا، ويتحدثان عن الليلة الماضية، وعن مشاريع لاحقة، وهما يتغامزان إلى بعضهما.. حاول الوقوف، فلم يستطع من شدة الألم، لكنه حاول مرات ومرات، حتى اتكأ على الحائط. نظر من حوله، فوجد نفسه منزوع اللباس، ما عدا لباسا داخليا شفافا، تظهر عورته من خلاله.. تدحرج إلى الباب، فسمع طرق أقدام، تتقدم نحو المكان الذي هو مرمي فيه، فتمدد على الأرض، كمن هو مغمى عليه، يترقب الداخل عليه، فسمع صوتا يطلب فتح

الباب، فعرف أنه كان محروسا.. فُتح الباب ببعد دورتين من المفتاح، فتقدم نحوه شخص، انحنى عند رأسه:

– أعرف أنك تسمع ما أقول، فقط أريد أن أخبرك بشيء مهم.. بقاؤك هنا مرهون بتعاونك معنا، وكلما أسرعت في تقديم ما نطلبه منك، كان ذلك مفيدا لك، لترك هذا المكان في أقرب وقت ممكن.

بعد هذا الحديث المقتضب، أمر الحارس بفتح الباب مرة أخرى ثم انصرف.

أدرك ماهر الصحفي بعدها، أنه معتقل، لكن دون أن يعرف من؟ وكيف؟ وفي هذه اللحظة، بدأت الشكوك تجول في خاطره، هل تكون الصحفية متورطة في الأمر؟ باعتبار أنها آخر شخص جلس إليه، وفي غرفتها، هل تآمرت عليه من أجل إلقاء القبض عليه.. وليلتها تلك معه كانت مجرد فخ ولعبة من أجل الإيقاع به، ثم ينتهي بعدها إلى هذا المكان الموحش؟ وفي نفس الوقت، كان يتخيل رد فعل الأصلع بعد غيابه، خاصة في هذا الموعد المهم بالذات، وهو يدرك تمام الإدراك الانضباط الذي يفرضه الأصلع، أي يعرف تماما رد فعله في هذه اللحظة، وهو يشمت ويسب لنرفزته، لكن، ما لا يعلمه الأصلع، أن الغائب في حكم خالقه، وهو كذلك مرمي في هذه الغرفة دون أكل ولا شرب ولا حتى مؤنس، وهو الذي قضى ليلة أمس في حضن امرأة، أصبح مشكوكا في أمرها، لكن حتى يتبين الأمر، فقد أسرّ إلى نفسه، واعترف بأنه لم يعش مثل تلك اللحظات التي قضاها إلى جنبها منذ زمن بعيد، فقد كانت كل يومياته متشابهة،

وكانت علاقاته مع الجنس اللطيف في الغالب علاقات عابرة، لا تتعدى في بعض الأحيان عشرين دقيقة، حتى مع مجهولات التقى بهن صدفة في المطارات أو الندوات الصحفية أو بعض مراسم افتتاح أو اختتام بعض الفعاليات والمؤتمرات التي كان يحضرها، أي كان يمارس الجنس على عجلة من أمره، دون حتى معرفة اسم الفاعل بها، غير أن هذه الصحفية كانت مختلفة، ربما للحالة التي كان يمر بها، أو لمعرفته السابقة بها، فكان كلما تذكر تلك اللحظات، يتوقف حسه بالألم، ويصير لا يبالي.. فقد يبقى يقلب تلك الآهات واللمسات في ذهنه وهو يبتسم.

في هذه اللحظة، دعا الأصلع إلى ضرورة الحديث في موضوع الصحفي، مرة أخرى، على أن يتم النقاش بموضوعية ولا جدال، وهو ما كان.. وانتهى النقاش، الذي دار بين كل الأعضاء، إلى ضرورة تغيير المكان الحالي، وفي أسرع وقت.. وهذا تجنبا لأي طارئ، ربما يحدث جراء هذا الغياب، لكن التنقل لا يكون كليا، فقط التجهيزات الحساسة والخطط، وكذا البرامج المسطرة، التي كانت تعلق دائما على الجدران، مع الإبقاء على الأجهزة العادية، حتى ولو قدر أن اكتشف المكان عن طريق الصحفي، لا يكون الضرر كبيرا.

****

لم يمر وقت طويل على المحادثة التي سمعها من ذلك المجهول، حتى سمع الباب يفتح مرة أخرى، لكن هذه المرة أحس بجلبة كبيرة، وتدافع بخطوات

سريعة.. دخل عليه أربعة أشخاص، كلهم في اللباس الرياضي، ماعدا واحدا منهم، ويظهر أكبرهم سنا، في لباس رسمي، دون ربطة عنق.. التفوا من حوله، وبقي أكبرهم ينظر إليه دون كلام، حتى دخل آخر يحمل كرسيا من حديد، تظهر عليه آثار الصدإ، وضعه في منتصف الغرفة ثم انصرف، حمل إليه من طرف اثنين منهم، وألقي بالقوة على الكرسي.. أحس بيديه المشدودتين إلى خلفه، تكادان تنكسران من شدة الصدمة، تقدم إليه أحدهم ثم فك وثاقه وتنحى جانبا..

تقدم إليه كبير السن هذا، وهو يضع يده اليمنى في جيبه واليد اليسرى تداعب سيجارة في فمه، تكاد تنتهي، لكنه مصر على جذبها حتى النهاية..

– الصحفي الحاذق ماهر، لا أخفي عليك، كل ما قمت به من برامج وما عرضته في القناة، تتبعته خطوة خطوة، وحللته دقيقة بدقيقة، ولا أخفي عليك كذلك، أنك تستطيع مداعبة مخاوف الأشخاص ببساطة، وتعطيهم في نفس الوقت، الأمل في القدرة على التنقل أو التحول إلى عالم بريء وفاضل، غير أن الشيء الذي لم تنتبه إليه في كل هذا أن التغيير لن يأتي بين عشية وضحاها، كما كنت تعتقد، لكن محاولة لا بأس بها، ولن تكتمل سواء بك أم بمن يشاركك هذا الأمل أو الطرح.

تحدث إلى الصحفي بنوع من الاستهزاء، وبقي ماهر يحدق فيه، دون أن يجيبه، فقط طلب منه شرب قليل من الماء.. ابتسم المحقق ثم حرك رأسه

لأحد أعوانه، فخرج أحدهم مسرعا ثم عاد إليه بقارورة ماء، يظهر أنها كانت منذ مدة هنا في الغرفة، لتغير لونها، وكانت مكشوفة دون غطاء، لكن ماهر لم يبال، ومد يده إليها، ولم يقطع أنفاسه منها حتى أنهاها. مد المحقق يده، وخطف القارورة من يد ماهر، ورماها على الأرض، فالتقطها أحد أعوانه، ورماها خارج الغرفة..

– من أنتم؟ ولم أنا هنا...؟ سأل ماهر

– لا يهم من نحن، المهم هو ما سوف تقدمه لنا من معلومات، قد تفيدنا للوصول إلى من يستخدمونك من أجل نشر ما يسيء إلى سمعة الكثير من أشخاص القصر..

– لا أعرف عما تتحدث، لكن كصحفي أتابع الأخبار، وشاهدت ذلك الكم الهائل من الفضائح من كبار هذا القصر، وبصراحة، لم أكن أعتقد أن يصل الحد إلى تلك الدرجات من الفساد الأخلاقي، حتى يظهر من نراه حسن الصورة في الشاشات والصفحات الأولى للجرائد، بمؤخرة عارية، وفي أحضان بنات الهوى.. والغريب، أنه في مقر عمله، حتى الأبله والمغفل لا يقوم بمثل هذه السلوكات.

تحدث ماهر إلى المحقق بنوع من الثقة، ولم تظهر عليه علامات الخوف أو التوتر، بل كان يتفقد أثر الشد على معصميه، ويمسح بعض قطرات الدم التي جفت والتصقت بهما.

كلمات كان صداها قويا على مسمع المحقق وأعوانه، وظهر عليه نوع من التوتر، لكنه ضبط أنفاسه..

– أعتقد أنك صعب المراس، وقوي المراء، ولا أقول الحجة، لكن لا يمكن لأحد أن يزورنا هنا دون أن يعطينا ما تحمله قريحته، وما تحمله في بطنك سوف نصل إليه مهما كلف الأمر.

– لا أظن أننا في زمن التعذيب في الظلمات والجر بالسلاسل في الساحات بعيدا عن الأنظار والزج وراء القضبان دون سبب، لأن ذلك الزمان قد حل وارتحل، وإلى حد الساعة، لا تملكون ضدي أي دليل مادي، يجعلني ضمن من تظنهم كذلك، أنا صحفي مطرود من منصب عملي منذ مدة، وهذه حقيقتي، لا أكثر ولا أقل.

ربما في اعتقادكم أنتم، وليس نحن، خاصة عندما يتعلق الأمر بالحرص على هيبة القصر والحفاظ على سلامة أهل الحصن..

... لم يكد المحقق ينتهي، حتى انفجر ماهر ضاحكا، من كلامه..

– سلامة أهل الحصن.. لا أعتقد، بل الحرص على هيبتكم وأملاككم ونفوذكم، أما سلامة أهل الحصن، كما تقول، فهي آخر ما تطلبونه.

– يظهر أننا يجب أن ننتقل إلى السرعة الثانية في التحقيق معك، لكن قبل هذا، يجب أن ندعو شخصا ليكون حاضرا معنا من أجل متعة أكبر.

رفع ماهر رأسه للمحقق، وتساءل في نفسه: من يكون هذا الشخص، الذي يريده معه في التحقيق.. ربما رئيس تحريره السابق أو مالك القناة؟

ما إن ظهر الشخص في الغرفة، حتى انتفض ماهر من فوق كرسيه، موجها إليها كلمات من الفحش والسب: "القـ... بنت الكلب"، لم يكن يعتقد أن الصحفية هي التي أوقعت به في هذا الشرك.

لم ترد عليه، وبقيت متعلقة بكتف المحقق، وهي تبتسم ابتسامة خبث، كمن حقق هدفه. أدرك خلالها ماهر أنها على علاقة بالمحقق، ولا يمكن أن تكون كذلك، وهي تداعب خصره، وتلتصق به، وهو يداعب مؤخرتها..

– أعرف أن الأمر صعب عليك، فلم تكن تتوقع من كانت تنام في سريرك بالأمس وتمارس معها الجنس بكل تلك الشبقية التي ظهرت عليك، و...

لم يكمل المحقق كلامه، حتى انتفض ماهر الصحفي، وأدرك أنه وقع في فخ لن يخرج منه أبدا، وأن تلك الليلة التي قضاها رفقة هذه الصحفية، قد صورت بكل تفاصيلها، وأكيد سوف تستعمل كوسيلة ضغط عليه.. تذكر في هذه اللحظة كل ما قاله له الأصلع، الذي كان يحذره دائما من التواصل في الفراش دون معرفة سابقة، فأغلب هذه العلاقات تنتهي سواء بالنهوض صباحا في فخ أم على مرض قد يهلك صاحبه.

– الأمر ليس شخصيا، ماهر، وتعرف جيدا أنني متيمة بك منذ أن كنت صحفيا عاديا، إلى أن أصبحت ذات سمعة واسعة، فلا تعتبره انتقاما مني، لأنك كنت

دائما تغلق الباب في وجهي، أكيد، تتذكر اليوم الذي جلسنا رفقة بعض الأصدقاء في المقهى المقابل للقناة التي كنت تشتغل فيها، كنت تمازحني أمامهم بطريقة حزت في قلبي، كانوا ينظرون إليك على أنك ذلك الذكي والمشهور، المتحاذق على غيره، حملت بعدها نفسي إلى غرفتي ومن ثم أقسمت على النيل من كل واحد نال مني بطريقة أو بأخرى.

– وما دخل هذا في ما نحن فيه اليوم يا ابنة القـ...؟

– أعرف أنه لا علاقة، لكن في ذلك اليوم قررت أن أصل إلى مصاف الكبار، حتى ولو كلفني الأمر الدوس على بعض المبادئ، لأننا في الأخير متشابهون.. الوصول إلى القمة لا يمكن أن يتحقق بالطريقة المستقيمة، وهذا بالذهاب إلى مكتب العمل صباحا والعودة مساء، بعيدا عن الضوضاء، من أراد الاستمرار في الدفاع عن حلمه يجب أن يتعلم الغوص في بحر المخاطر، والمشي مع الذئاب في الغابات المظلمة، والسهر مع السفهاء والمرضى والمجانين في أوكار الدعارة التي يمارسون فيها كل عقدهم وهم ثمالى.

– "يضحك "، من أجل منصب صحفي في القسم السياسي، دست على كل المبادئ.. فماذا لو كان الأمر متعلقا بالجلوس على كرسي القيادة؟

– صحفية في القسم السياسي، هذا ما أخبرتك به، وليس من الضروري أن يكون كذلك..

– العاهرة بنت الكلب...

– فقط، يجب أن تعرف شيئا قبل أن أنصرف إلى البحث عن المتعجرفين من أمثالك، الذين شوهوا جسدي مثل الكلاب، الذين مارسوا عقدهم فوقي مثل الحيوانات ثم انصرفوا، أهديت إليهم جسدي، لأن أغلبهم وعدني بمنصب يليق بسمراء مثلي، لكنهم يقفلون أزرار سراويلهم في السلالم، هربا مني، بعدما ألقوا على جسدي شهوتهم الساخنة.. أما أنت، فلست كذلك، فقط، لأنك أصبحت فريسة ثمينة، والحصول عليها يكون مقابله كثيرا جدا، لا تأخذ الأمر على أنه شخصي، أرجوك..

بقي ماهر منكمشا، ولم يصدق أن فتاة تخاف أن تدوسها السيارات في الطريق، مثل فتاة صغيرة، وتصيح حين تقترب منها، تكون أفعى، تزرع السم في كل من تلقاه أمامها، حقدا وغلا وانتقاما من سيرتها كصحفية.. وفي هذه اللحظة، ظهرت صور ليلته معها، وهي تداعب أفكاره، فقاطعت تفكيره، وهي تداعب سيجارة قبل إشعالها:

– إن كتب لك العيش، وممارسة الجنس مرة أخرى مع امرأة، حاول أن تتعلم لغة الفراش، وتناغم الأجساد، لأنك لم تقنعني، ولم توصلني إلى ما أردته معك، ولولا أنني كنت في مهمة معك لتركتك وانصرفت، ولا أنتظر النهوض إلى جنبك في الصباح..

كلام، استفزت به الصحفي ثم خرجت، نظر من حوله، فوقعت عيناه على ابتسامات ساخرة من طرف أعوان المحقق، الذي بقي يغازل شاربه وهو يبستم كذلك..

****

خضع الأصلع، في الأخير، لرأي الغالبية، التي طلبت ضرورة تغيير المكان من أجل تفادي أي طارئ، خاصة أن الصحفي ماهر طال غيابه لليوم الثالث، ولم يظهر عليه أي أثر. ظهر على الأصلع الحزن، وفي الغالب، كان يتفقد مكتب ماهر وهو يتمتم بكلام غير مسموع، كأنه يسأل حاجاته أن تدله على مكانه، كان يقضي اليوم كله في هذا المكان، بعيدا عن الأنظار، وحين يحل الظلام، يغرق في ظلمات شارع كان يقوده إلى العمارة، التي كان يسكنها مباشرة، كان يدير المفتاح وهو مستعجل، فربما يجد الصحفي ينتظره في الغرفة، لكن دون جدوى...

جلس على الأريكة المقابلة للباب مباشرة، وهو يفكر في الصحفي، تذكر بعض الأحاديث معه، والمشاحنات التي كانت لا تنتهي بينهما، عن حماسه في العمل، وخاصة عندما قدم له الصور الأولى عن الزعيم، التي كانت السبب في طرده من القناة، لكن رحب بالفكرة دون تردد، وهذا ما كان يعجبه في ماهر، يصل حماسه في بعض الأحيان إلى الطيش في تصرفاته، لكنه يبقى على المبدإ الذي اختار الذود عنه، لا تهمه الماديات بقدر تحقيق الهدف الذي كان

يصبو إليه.. وبينما هو كذلك، حتى سمع طرقا خفيفا على الباب، تردد في فتحه، لكنه أسرع بعد ذلك إليه..

– تفضلي بالدخول.. كيف وصلت إلى هنا؟

– لدي معك صفقة.

– لا أحتاج إليها. دعيني وشأني، أنا لا أفكر إلا في شخص فقدته منذ بضعة أيام..

– الصحفي ماهر؟

التفت إليها بعينين جاحظتين، ماذا؟

– تعرفين أن لدي علاقات كثيرة مع الصحافة، ومن يومين زارتني صديقة في البيت، وكانت في حالة متقدمة من السكر، وذكرت اسم ماهر عدة مرات، فأردت أن أسألها عنه، فكانت ترد علي:

– ابن العاهرة، يستحق ما هو عليه اليوم، ولن يرى النور مرة أخرى، ووقعته هذه المرة قاتلة..

– هل تعرفينها جيدا؟

– نعم.

– وكيف يمكن التواصل معها؟

– إذا أردت، حالا.

فكر الأصلع قليلا ثم طلب منها التريث..

كنت أعرف أنه لا يمكن أن يخون العهد الذي بيننا، لأنني أعرفه جيدا، ولكن، الكل كان يشك في سيرته، بالرغم من أنني أكدت لهم أنه مخلص للقضية، ولو كلفه ذلك حياته...

وبينما هو يتحدث، حتى سمع أحدهم يدفع الباب الذي كان مفتوحا، فالتفت، فإذا بماهر الصحفي يقف عند الباب، والدموع تملأ عينيه.. توجه الأصلع إليه، وهو مندهش، واختلط إحساس الفرحة بالدهشة، سقط إثرها الصحفي على ركبتيه ثم رفع عينيه إلى الأصلع:

– أنا آسف. ودخل في نوبة بكاء حادة

فهم الأصلع رسالة ماهر، وتراجع إلى الخلف، ثم توجه إلى النافذة، بعد سماعه جلبة في الشارع، فكان عليه التوجه إلى المخرج السري بسرعة...

النهاية